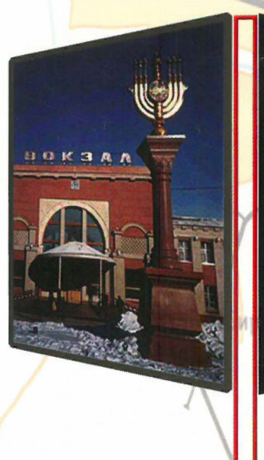
د . أسعد السحمراني

إسرائيل الأولى

(بيروبيجان)

Кирга

БИРОБИДЖАН





دار النفائس



تشكّل ثقافة " الشعب المختار" حاجزاً بين اليهود والتعايش مع الآخرين. ولذلك ضاق الشيوعيون بعد القياصرة ذرعاً بهم، لكثرة ما حاولوا أن يشكلوا دولة ضمن الدولة.

فعمد قادة الكرملين إلى جمع اليهود في إقليم مستقل خاص بهم، في أقصى الشرق الروسي هو "بيروبيجان" ، ليكون دويلة ضمن الاتحاد السوفياتي.

ولكن بعد اغتصاب فلسطين بدأ ستالين يضيّق الخناق عليهم في ذلك الإقليم، حتى غدوا أقلية فيه، ومع ذلك يحاولون بعد تفكك الاتحاد السوفياتي تثبيت الشخصيَّة اليهودية للإقليم، ليكون كياناً احتياطياً لكيانهم في الأرض المغتصبة.

ومؤلف هذا الكتاب باحث مختص بالعقائد والأديان وصاحب مؤلفات كثيرة عن اليهود، وقد بيَّن فيه أصل يهود روسيا، ومناخات قرار إنشاء إقليم "بيروبيجان"، والواقع الثقافي في الإقليم اليهودي المستقل.. وغير ذلك من الشؤون المتعلقة بالموضوع.

إنه كتاب يكشف الغطاء عن حقائق مجهولة لمعظم القراء والمتابعين.

الناشر


ISBN 9953-18-128-4
9789953180380

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾

[المائدة/ ٨٢]

إسرائيل الأولى

(بيروبيجان)

إعداد

أ.د أسعد السحمراني

استاذ «العقائد والأديان المقارنة»

في جامعة الإمام الأوزاعي ببيروت



إسرائيل الأولى (بيروبيجان)

إعداد: أ.د. أسعد السحمراني

الطبعة الثانية: ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤م

ISBN 9953 - 18 - 128 - 4

نشر | Publisher

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان ـ بناية الصباح
وصفي الدين ـ ص.ب 5152 ـ 14
الرمز البريدي: 2020 ـ 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 803152 ـ 009611810194
بيروت ـ لبنان



DAR AN-NAFAES
Printing-Publishing-distribution
Verdun Str - Safiedine bldg.
P.o.Box 14-5152
Zip code 1105-2020
Fax: 009611 861367
Tel: 00961 1 803152 - 810194.
Beirut - Lebanon

Email: alnafaes@alnafaes.com
Web Site: WWW.alnafaes.com

الإهداء

إلى...

أبطال الانتفاضة في فلسطين

ورجال المقاومة الباسلة

ضد الأمريكي في العراق

أهدي عملي هذا

مقدمة

الاستعلاء والانعزال سمتان أساسيتان من سمات يهود، وقد تأصلت فيهم مثل هذه الخصائص الشخصية بفعل نظرية «الشعب المختار»، وقد شكل ذلك عقبة في الاندماج الوطني عن كل معتنقٍ لليهودية قديماً وحديثاً.

يضاف إلى ذلك أن مزاعم السامية واللاسامية مزاعم مختلقة، لأنه لا شيء اسمه كيان سامي أو انتماء للسامية، أو لغة سامية إلا بحدود الأسطورة التوراتية بشأن نوح، عليه السلام، وأبنائه.

أما الحقيقة فهي، وكما توصل عدد من الباحثين من يهود أنفسهم، ومفادها أن يهود العالم، بنسبة ٩٢٪، من أصل خزري. ومملكة الخزر كانت تقوم على ضفاف بحر الخزر أو بحر قزوين، وقد تهوَّد قسم كبير من أهلها في أواسط القرن الثامن الميلادي.

وبعد اجتياح الروس لهذه المملكة، أواخر القرن العاشر للميلاد، توزع سكانها في المحيط الجغرافي المجاور، وكانت الغالبية من نصيب روسيا.

لقد تناقض يهود مع أبناء مجتمعهم، وحاولوا أن يكونوا دولة داخل الدولة، وتصادموا مع الحكام والشعب، وجرَّ ذلك متاعب لهم ولأهل البلد.

بعد استلام الشيوعيين السلطة عام ١٩١٧م، وقد كان ليهود دور في

الثورة. حاول قادة الكرملين حلَّ المشكلة، ووقع الاختيار، زمن ستالين في العام ١٩٢٨م، بأن يتم تأسيس إقليم يهودي مستقل في بيروبيجان Birobidjan، في أقصى الشرق الروسي، ولأن ستالين كان مع اغتصاب فلسطين، كما حال الأمريكان، والأوروبيين يومها، فإنه أخذ يضيِّق على المستوطنين في الإقليم من يهود، بعد اغتصاب فلسطين في العام ١٩٤٨م، فتراجع عدد يهود فيه، وباتَ الإقليم اليهودي المستقل، أو إسرائيل الثانية مشروعاً منسياً. وبعد تفكُّك الاتحاد السوفياتي السابق، مع بداية تسعينيات القرن العشرين، تجري محاولات لتثبيت شخصية يهود الإقليم، رغم نسبتهم السكانية القليلة، وكأن بيروبيجان كيان احتياطي قد يستخدمونه حال فشل الغزو الصهيوني الاستيطاني الإحلالي في فلسطين، وهذا الفشل مرتقب.

الدراسة، التي نقدمها للقارئ، حصيلة مصادر ومراجع بالفرنسية والعربية، وصاحب الفكرة، أو الذي أشار إلى الموضوع هو الحاج توفيق حوري رئيس مجلس أمناء جامعة الإمام الأوزاعي - بيروت، فله الشكر ونسأل الله تعالى له الثواب، وقد تقبل الأستاذ أحمد راتب عرموش، رئيس مجلس إدارة دار النفائس، المشروع وتعهد بنشره فله الشكر كذلك. وكان ممن ساعدوا في إخراج الموضوع الشيخ محمد سعيد باه من السنغال، حيث ساعد في ترجمة ونقل بعض النصوص من الفرنسية إلى العربية، والدكتور عباس صبّاغ، الذي أسهم في ضبط بعض النصوص وتأمين الخرائط وبعض المعلومات، وكانت كذلك مساهمة للعاملين في مكتب الإعلام للمؤتمر الشعبي اللبناني، وللجميع أسأل الله تعالى الأجر والثواب.

كما أرجو أن يسهم هذا الكتاب في كشف جانب من دفائن النفس اليهودية والصهيونية المشحونة بالعنصرية والعدوانية والانعزالية

والاستعلاء، كي يعرف الحقيقة من لا يزال يظن غير ذلك بالصهاينة.

هذا الموضوع قد يحتاج لدراسات أكثر تفصيلاً يقوم بها من يتقنون اللغة الروسية، لأن بإمكانهم تتبع المادة الموجودة حوله، وأرجو أن يكون في هذا العمل حافز لهم ليقوموا بهذه المهمة.

عكار - لبنان الشمالي
في ١٦/٩/٢٠٠٣م

يهود روسيا خزريون

تشكل مملكة الخزر، التي تهوَّدت في القرن الثامن الميلادي، المصدر الرئيس ليهود روسيا وجوارها مثل أوكرانيا وبلروسيا وسائر دول أوروبا الشرقية.

الخزر من أصل تركي، زحفوا في القرن السابع الميلادي مخترقين جبال القفقاس إلى جنوبي روسيا، وأسسوا مملكتهم على ضفاف بحر قزوين المسمى يومها: بحر الخزر.

ويقول ياقوت الحموي، في «معجم البلدان: «هي بلاد الترك، خلف باب الأبواب المعروف بالدَّربند». ويكمل الحموي، ناقلاً من رسالة أحمد بن فضلان، رسول الخليفة العباسي المقتدر إلى تلك البلاد: «الخزر اسم إقليم من قصبة تسمى إِتِل، وإِتِل اسم لنهر يجري إلى الخزر من الروس وبلغار، وإِتِل مدينة، والخزر اسم المملكة لا اسم مدينة، والإِتِل قطعتان: قطعة على غربي هذا النهر المسمّى إِتِل، وهي أكبرهما، وقطعة على شرقيِّه، والملك يسكن الغربي منهما. ويسمى الملك بلسانهم: يلك، ويسمّى أيضاً باك... إلا أن الملك وخاصَّته يهودٌ، والغالب على أخلاقهم أخلاق أهل الأوثان». ويكمل الحموي: «والخزر وملكهم كلهم يهود، وكان الصقالبة وكل من يجاورهم في طاعته».

ويؤكد ول ديورانت، في كتابه «قصة الحضارة»، الأمر نفسه، حيث يقول: «إن هذا الشعب قد أسس مملكة تمتد من نهر الدنيبر إلى بحر

قزوين (بحر الخزر)، وقد «شيَّدوا عاصمة لهم هي مدينة إتيل Itil على مصب نهر الڤولجا Volga بالقرب من استراخان الحاضرة، واعتنق ملكهم، هو والطبقات العليا منهم، الدين اليهودي. وكانت تحيط بهم الدولتان المسيحية والإسلامية، ولكنهم فضلوا في أكبر الظن أن يغضبوا الدولتين بدرجة واحدة عن أن يغضبوا واحدة منهما غضباً يعرضهم للخطر».

ويبقى المصدر الأكثر دقة حول هذه المملكة كتاب اليهودي آرثر كيستلر Arthur Koestler، المولود في بودابست عام ١٩٠٥م، والذي عاش بعد الحرب العالمية الثانية لاجئاً في بريطانيا، وكتابه اسمه The Thirteenth Tribe القبيلة الثالثة عشرة.

يورد كيستلر، في كتابه الآنف الذكر، بأن مملكة الخزر، التي سيطرت على مساحة بلغت حوالي ٨٠٠ ألف ميل مربع بين بحري قزوين والأسود، كانت تشكل موقعاً استراتيجياً منع الروس وجوارهم من الإغارة على بيزنطة التي كانت في آسيا الصغرى (تركيا اليوم)، كما إنهم شكلوا حاجزاً لوقت في طريق الفتوحات الإسلامية عبر القفقاس باتجاه أوروبا الشرقية.

ويرجح كيستلر أن ملك الخزر قد تهوَّد في سنة ٧٤٠م، والملك يومها اسمه بولان Bulan، ومع تهوُّده تهود أغلب الخزر، وبات عدد يهود كبيراً، وظل كذلك طوال عمر هذه المملكة الواقع بين القرن السابع والقرن العاشر للميلاد.

لقد عاشت مملكة الخزر تحدياً جديداً بعد العام (٨٥٥م) حيث تأسست في هذا التاريخ مملكة الروس، التي اعتنقت المسيحية فيما بعد وكانت تحت حكم ڤلاديمير الخامس (٩٧٢ـ ١٠١٥م) «دوق كييف الكبير»، وكان ڤلاديمير قد تزوج أخت الامبراطور باسيل الثاني

البيزنطي. ومع توسع مملكة الروس بدأت مملكة الخزر بالتلاشي والضعف وبدأت تزول عن الخريطة، أما يهود الخزر فقد توَّزعوا في أوروبا الشرقية ومنها روسيا وأوكرانيا وبلروسيا بشكل أساسي، وأما مملكتهم فقد كان من ورثة أرضها ليتوانيا وغاليشيا وبولندا وهنغاريا.

ونعود مجدداً إلى آرثر كيستلر، الباحث اليهودي المتوفى في بريطانيا عام ١٩٨٣م، حيث يقول: «والواقع أن موضوع الجدل هو مصير الخزر اليهود بعد تدمير امبراطوريتهم في القرن الثالث عشر، والمصادر شحيحة عن هذه المسألة وإن ورد ذكر بعض مستوطنات الخزر في القرم وأوكرانيا والمجر وبولندا ولتوانيا، وتكشف الصورة العامة التي تنبثق من هذه المعلومات المتناثرة عن هجرة قبائل وجماعات خزرية إلى تلك الأقاليم الواقعة في شرق أوروبا، ولا سيما روسيا وبولندة، حيث وجدت، في فجر العصر الحديث، أكبر تجمعات من يهود، الأمر الذي دفع كثيرين من المؤرخين إلى الحدس بأن جزءاً هاماً، أو قل الأغلبية من يهود الشرقيين (أعني من شرق أوروبا) وبالتالي ـ يهود العالم ـ ربما كانوا أصلاً من الخزر لا من أصل سامي».

بعد الهزيمة الأولى التي أصابت مملكة الخزر على يد الروس عام ٩٦٥م، بدأوا يتشتتون في أوروبا الشرقية، ومنها روسيا ـ كما مر سابقاً ـ وإن هؤلاء «المتحدرين من سلالة الخزر، يشكلون أكثر من ٩٢ بالمائة من جميع من يسمون أنفسهم يهوداً في كل مكان من العالم اليوم. والخزر الآسيويين، الذين أنشأوا مملكة الخزر في أوروبا الشرقية، أصبحوا يسمون أنفسهم يهوداً بالتحول والاعتناق سنة ٧٢٠م، وهؤلاء لم تطأ أقدام أجدادهم قط الأرض المقدسة في تاريخ العهد القديم. هذه حقيقة تاريخية لا تقبل جدلاً». هذا ما قاله بنيامين فريدمان في كتابه: (يهود اليوم ليسوا يهوداً)، وقد نقل مقاله من الموسوعة اليهودية. وإذا كان قد اختلف تاريخ التهود بين

المصدرين، فمنهما من قال: ٧٤٠م وآخر ٧٢٠م، إلا أنهما توافقا على دحض المزاعم اليهودية بحق تاريخي بالأرض المقدسة، فلسطين.

نخلص إلى القول، تأسيساً على ما تقدم: إن يهود اليوم بنسبة ٩٢٪ لا صلة لهم مع السامية، ولا مع الساميين، وإنما هم من القفقاس وجوارها، ويتحدرون من القبيلة الثالثة عشرة ـ كما قال آرثر كيستلر ـ لا من أسباط يعقوب.

يهود روسيا والعلاقة مع الدولة في العهدين القيصري والشيوعي

عندما اعتنقت مملكة الروس المسيحية مع فلاديمير الخامس (٩٧٢ـ ١٠١٥م) بدأت مقاومة الخزريين، وهم يهود، لروسيا، واستمر ذلك وتواصل بعد انحلال مملكة الخزر، لأن يهود الخزر انتشروا في أوروبا الشرقية وكان نصيب الروس منهم كبيراً.

يهود، بين ثقافتهم التلمودية ومزاعم الشعب المختار، كانت مواجهتهم للنظام الروسي ولأهل المجتمع الذين تحولوا إلى المسيحية قاسية، وقد حاكوا المؤامرات ولم يستكينوا حتى يومنا هذا.

إن يهود مملكة الخزر، الذين انتشروا في أوروبا الشرقية ومنها روسيا، تعاطوا كعادتهم لجهة الانعزال وإنشاء «الغيتوات» التي أغلقوها على أنفسهم، وكانوا يسعون للمحافظة على لغتهم اليديشية ـ فيها جذور ألمانية ـ وعلى ثقافتهم التلمودية، وفي كل ذلك ينطلقون من ادعاء مكانة «الشعب المختار»، ويتصرفون باستعلاء مع كل الناس من غير يهود، وقد رفضوا، بسبب ذلك، الاندماج في النسيج الاجتماعي لأماكن إقامتهم ـ وهذا شأنهم في كل مكان أقاموا فيه حتى يومنا هذا ـ كما أنهم رفضوا العمل في الزراعة، وهي المورد الأساس في روسيا يومها، وأصروا على البقاء في المدن ليعملوا في المال والتجارة والإعلام وما شابه ذلك.

عندما اعتلى القيصر ألكسندر الأول (١٨٠١ـ ١٨٢٥م) العرش الروسي، عمل على إلغاء إجراءات كان قد اتخذها الحكام الروس قبله منذ العام ١٧٧٢م، وتقضي بالتضييق على يهود إن لجهة الإقامة، أو لجهة الاشتراك في الشأن العام والوظائف.

وقد شكل ألكسندر الأول لجنة سميت «مجلس الشؤون اليهودية..»، وهذه اللجنة أصدرت قرارات، بتوجيه منه في العام ١٨٠٤م، تنص على ضرورة إدماج يهود بالمجتمع، وأن يقبلوا العمل في الزراعة باعتبارها المرفق الأساس في الاقتصاد.

بعد مقاومة ألكسندر الأول لحملة نابليون عام ١٨١٢م على روسيا، وانتصاره، خاطب حكام أوروبا قائلاً: «على حكام أوروبا ألا يضعوا ثقتهم في قوة جيوشهم، بل في متانة إيمانهم ودينهم». وهكذا توصل ألكسندر إلى اتفاق التزم بموجبه حكام أوروبا بأن يحكموا رعاياهم بوحي روح المسيحية، وأن توجِّههم مبادئ العدالة والمحبة والسلام، وقد وقَّع اتفاقاً، عُرف بالحلف المقدس، كلٌّ من ألكسندر الأول وفردريك وليم الثالث ملك بروسيا وفرانسيس الأول أمبراطور النمسا، وكان ذلك في ٢٦/٩/١٨١٥م. وكان ألكسندر يعلن دوماً بأن المسيحية واحدة في كنيستيها الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية الغربية، وكل هذه المواقف كانت تزيد من حقد يهود عليه، الذين تآمروا وسعوا لاغتياله، وكان لهم ذلك من خلال السُّمِّ الذي وضعوه له في طعام تناوله في كنيس لهم، بناء لدعوة، وقضى في ١/١٢/١٨٢٥م.

إن كل تسامح ألكسندر الأول مع يهود لم ينجه من غدرهم، فقد فتح لهم أبواب المدارس الحكومية العلمانية، وقدم مساعدات للمصانع التي تقوم باستقبال عمال حرفيين يهود، وطالبهم بعدم تمييز أنفسهم بلباس خاص...الخ.

بعده، انتقل الحكم إلى نقولا الأول (١٨٢٥ـ ١٨٥٥م)، الذي أصدر مرسوماً، في العام ١٨٢٧م، يفرض الخدمة العسكرية على يهود، وكانوا قبل ذلك يدفعون بدلاً مالياً لها، وفرض عليهم أن يرسلوا أولادهم إلى المدارس الحكومية من أجل أن ينشأوا على قاعدة الاندماج بالمجتمع، وكي يزيل من أذهانهم مزاعم مفادها أن أبواب المجتمع الروسي مسدودة أمامهم.

لكن إلزامية دخول المدارس الحكومية لأطفال يهود، وعدم تطبيق ذلك على الأطفال الروس كأن له مردود سلبي، حيث تقدم يهود علمياً على حساب أبناء مجتمعهم الروس. وقد فرض نقولا الأول رقابة على كتبهم، ومنعهم من استخدم اليديشية، لغتهم الخاصة، في الأعمال التجارية وسائر النشاطات الثقافية، وقد أدرك القيصر بأن الثقافة التلمودية هي التي أشبعت نفوس يهود بالاستعلاء والميل إلى الانعزال.

لقد قاوم نقولا الأول نفوذ يهود انطلاقاً من مسيحيته، لذلك حاربوه وتآمروا عليه بعد حرب القرم وما خلفته من خسائر، ومع التآمر اليهودي كانت وفاة نقولا الأول مسموماً على يد طبيبه ماندت في ٢/ ٣/ ١٨٥٥م.

انتقل العرش الروسي إلى القيصر ألكسندر الثاني، الذي اعتمد نهجاً مغايراً مع يهود، بحيث أن رجل المال والتآمر اليهودي زمن نقولا الأول، المدعو بنيامين دزرائيلي، وصف هذا القيصر بأنه «أكثر حكام روسيا تسامحاً».

لقد حرر هذا القيصر ملايين العبيد، وعمل لإشاعة العدل، وخفف الإجراءات عن يهود، واتخذ من القرارات ما يساويهم بسائر مواطنيهم الروس، فقد سمح لهم بالتنقل والإقامة حيث يريدون، وبدخول الوظائف واستلام المناصب الحكومية. لكن القيصر عمل على مساعدة لنكولن والمحافظة على الاستقرار في الولايات المتحدة الأمريكية حيث

أرسل أساطيله لهذه الغاية، وكان، بعد اغتيال لنكولن رئيس الولايات المتحدة عام ١٨٦٥م، أن حاول بيروزوفسكي اغتيال ألكسندر الثاني في ٦/٦/ ١٨٦٥م حين كان بصحبة نابليون الثالث في منطقة بوادي بولون في باريس، وذلك بإطلاق رصاصتين باتجاهه نجا منهما.

لقد عمل يهود، خاصة الروتشيلديون الممسكين باللعبة المالية، على الإيقاع بين روسيا وأوروبا الغربية ـ خاصة بسمارك في ألمانيا ـ رغم إجراءات القيصر التي أنصفتهم، وقد تمكنوا أخيراً من اغتياله عام ١٨٨١م، وأدى ذلك إلى انفجار الغضب الروسي على يهود في مناطق كثيرة من روسيا، وفي هذا الجو المشحون ضد يهود استلم عرش روسيا ألكسندر الثالث (١٨٨١ـ ١٨٩٤م).

لأن تسامح ألكسندر الثاني لم يجد نفعاً مع يهود، فإن بعض الرسميين الروس كان يقول: «إذا كانت سياسة التسامح التي اتبعها ألكسندر الثاني لم تكن كافية لإرضاء يهود ومصالحتهم، فلن يرضيهم شيء بعد الآن إلا أن يبسطوا سيطرتهم المطلقة على روسيا».

وكانت قرارات مايو/ أيار ١٨٨٢م المؤقتة التي اتخذها وزير الداخلية الكونت أمنابتيف التي كانت استثنائية، وفيما كان من نتائج ذلك طرد يهود من موسكو عام ١٨٩١م، وقد بدأ يهود ينخرطون في كل حركة مناوئة للقيصر. أما سبب العمل لتحجيم النفوذ اليهودي المالي، وتحديد أعدادهم في الجامعات وفي الوظائف الذي تضمنته قرارات مايو/ أيار ١٨٨٢م، فإنه بسبب تحذيرات وجهها أهل الرأي في روسيا، حين أشاروا بأن يهود، الذين يشكلون ما نسبته ٤,٢٪ من سكان روسيا، باتوا يهددون اقتصاد البلد بالكوارث من خلال نفوذهم وتآمرهم، وقد كان من ردات الفعل أن النفوذ اليهودي الروتشيلدي المصرفي قد استُثْمِر لفرض حصار مالي قاسٍ ضد روسيا.

بعد ألكسندر الثالث، انتقلت السلطة في روسيا إلى القيصر نقولا الثاني عام ١٨٩٤م، وكان هذا القيصر آخر حكام روسيا من عائلة رومانوف. ولم يتبدل شيء في وضع يهود روسيا الذين تمركزوا في المدن يعملون بالمال والصناعة، ولم ينخرطوا في المجتمع الزراعي، ولا في الأعمال الزراعية، ولم يذهبوا إلى الأرياف.

وإذا كان العام ١٨٩٧م قد شهد ولادة المنظمة الصهيونية العالمية على يد اليهودي ثيودور هرتزل، فإن يهود روسيا كانوا قد أسسوا حزباً يهودياً ادَّعى الثورية، والعمل لتكتيل العمال هو حزب (Bund)، وقد ظهر إلى العلن وبأعمال عنفية منذ العام ١٩٠٣م.

أما عن حجم يهود سكانياً، فإنه ووفقاً لإحصاء رسمي، أجري عام ١٨٩٧م، كان عددهم يزيد على خمسة ملايين، وهناك إحصاء آخر يشير إلى أن القسم الأوروبي من روسيا كان يضم، في العام ١٩١٧م، من يهود ٣,٨٣٧٠٠٠.

مع مطلع القرن العشرين، بدأت الفوضى والمشكلات داخل المجتمع الروسي، وبدأت الأفكار الماركسية بالانتشار، وقد ساعد يهود بتأسيس حركات مثل الحزب الاشتراكي الثوري وسواه، وبعد سلسلة اعتقالات واغتيالات كان انفجار ثورة عارمة في عام ١٩٠٥م، الذي شهد اغتيال خال القيصر، الدوق سرجيوس في ١٧/ ٢/ ١٩٠٥م، ولاقى يهود بعدها الاضطهاد على يدي الجنرال دوبراسوف، ومعهم من شارك بالثورة من غير يهود، ولكنهم تمكنوا من اغتياله عام ١٩٠٦م.

وما دام موضوعنا عن يهود روسيا فإنه من المفيد أن نذكر بأن حكومة روسيا بدأت تضيِّق عليهم، وقررت حلَّ الأحزاب اليهودية وحظَّرت نشاطها، وحرَّمت المراسلات باليديشية، وفي العام ١٩١٥م، صدر قرار بمصادرة المطبوعات التي تُستخدم فيها اللغة العبرية،

وأُنشِئت مخيمات يتجمع فيها يهود روسيا الذين تمَّ إقصاؤهم من المواقع الاستراتيجية.

وتبلورت الحركات الساعية لإسقاط الحكم في روسيا في تيارين:

١ـ **البلشفيك**: الذين أصدروا صحيفة اسمها: البروليتاريا، وكان المسؤولون عن تحريرها: لينين ودوبروفينسكي وزينوفييف وكامينيف. وفي العام ١٩٠٩م، بدأ لينين يشكل ترويكا مع زينوفييف وكامينيف.

٢ـ **المنشفيك**: الذين أصدروا صحيفة تسمى «جولوس سوسيتال ديموقراطا»، وكان أبرز محرريها: بليخانوف، وأكسلرؤد، ومارتوف، ودان، ومارتينوف. وقد انفرد تروتسكي بإصادر دورية سمّاها: ڤيينا براڤدا.

إن القيصر الذي أحس بما يجري حاول إنقاذ الوضع بالاتجاه إلى نظام ملكي دستوري، وعمل لإجراءات إصلاحية كثيرة قادها رئيس وزارته أركاديفيتش ستوليبن عرفت باسم: قوانين ستوليبن، لكن العاملين للثورة لم تعنهم هذه الأمور ولا الإصلاحات، بل اغتالوا رئيس الوزراء الإصلاحي عام ١٩١١م، على يد محامٍ يهودي يدعى موردخاي يورغوف، ولا أجدى معهم العفو السياسي من القيصر عن السجناء عام ١٩١٣م.

وكانت قد أُنهكت روسيا بحربها مع اليابان إضافة إلى المشاكل والأزمات الداخلية، وبالمقابل تجمعت القوى المناوئة التي تعد للثورة على القيصر، وشهد العام ١٩١٧م حالة فوضى وعزل للقيصر انتهت باستلام الشيوعيين السلطة، واصطلحوا على تسميتها: ثورة أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٧م.

وكي نعرف المساهمة اليهودية في هذه الثورة فإنه يكفي أن نذكر تركيبة اللجنة المركزية للحزب في زمن لينين، وبعد عام من الثورة سنة ١٩١٨م، وقد تألفت من: برونشتاين (تروتسكي)، إبغلبوم (زينوفييف)،

لوري (لارين)، أوريتسكي، فولودارسكي، روزبنفيلدت (كامينيف)، سفيردلوف (يانكل)، وهؤلاء كلهم يهود، واللجنة المركزية كانت من ١٢ عضواً، ولينين نفسه كان من أم يهودية، وزوجته كانت يهودية.

أما عن واقع يهود بعد الثورة البلشفية الشيوعية، فإن عددهم داخل الاتحاد السوفياتي السابق قد بلغ في سنة ١٩٢٠م، حوالي ٢٦٨٠٠٠٠، وكان ٨٠٪ منهم يعيشون في أوكرانيا وروسيا البيضاء، وقد تمركز ٨٧٪ في المدن، ولم تكن عندهم رغبة في الإقامة في الريف وفي المناطق الزراعية.

وقد كان من أولى خطوات الثورة إعطاء يهود حقوقاً سياسية، وأصبحت معاداة أيٍّ يهودي جريمة يُحاسب عليها القانون، وقد انخرط يهود في الجيش الأحمر السوفياتي الذي أسسه تروتسكي، وبلغت في العام ١٩٢٦م نسبة الضباط منهم في هذا الجيش ٤,٤٪، وأبرزهم في قيادته زينوفييف وسفيردلوف.

أطلّت الثورة البلشفية الشيوعية في الاتحاد السوفياتي السابق، ويهود مصرون على عدم الاندماج في مجتمعاتهم، فمنهم من هاجر، وبكثافة، إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث تشير الإحصاءات إلى أنه قد هاجر حوالي ١٤٠٠٠٠٠ يهودي إلى الولايات المتحدة، ما بين عامي ١٨٩٩ و١٩١٤م، أما مَنْ كانوا في الداخل فقد انعزلوا كعادتهم، حتى أنهم كانوا يتحادثون بلغتهم العبرية ذات الجذور اليديشية، ولم يكن أكثر من ٢٥٪ منهم يتكلم الروسية.

هذا الوقع حمل القادة السوفيات ـ خاصة في عهد ستالين ـ على التسليم بخصوصية ثقافية ـ اجتماعية ليهود بخلاف ما كانت النظرة عليه للقوميات والإثنيات الأخرى، وقد هيأ ذلك المناخ لحلٍّ يكون بإعطائهم منطقة يعيشون فيها، تكون لهم، من خلالها، حرية الحفاظ على شخصية خاصة بهم.

وإذا تجاوزنا قليلاً تاريخ انطلاق مشروع بيروبيجان (Birobidjan) في العام ١٩٢٨م، نجد أن ستالين، رغم تشدده، هو الذي اصرَّ بالخصوصية اليهودية، وقَبِلَ بعدم اندماج يهود في مجتمعهم، وهذا يؤشر إلى مقدار النفوذ اليهودي في السلطة السوفياتية. فقد حدث لأول مرة في ٢٤ أغسطس/آب ١٩٤١، أن سمع الناس من راديو موسكو ما يلي: Bride Yiden ومعناها بالعربية: أيها الرفاق اليهود، وكان هذا نداءً من ستالين حاول به التودد إلى يهود والصهاينة، وإظهار تعاطفه معهم، وبعد هذا النداء سلَّم الميكروفون إلى الشاعر اليهودي بيريتزماركش Peirez Markich، الذي أعلن ليهود العالم بأن ستالين يوافق على أن يهود العالم شعب واحد، لا تفرِّق بين وحدتهم بحار ومحيطات وجبال، وهذا أقصى ما ترجوه الصهيونية.

يهود روسيا
ومناخات قرار إنشاء إقليم بيروبيجان

يُعدُّ مشروع توطين يهود روسيا (الاتحاد السوفياتي السابق) في إقليم بيروبيجان (Birobidjan)[١] من أكثر الموضوعات جدلاً، وكان قد جاء في إطار العمل لحل مشكلة كانت موجودة في روسيا القيصرية قبل الشيوعية، واستمرت في الاتحاد السوفياتي بعد الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧م، هذه المشلكة هي «المشكلة اليهودية» (Problème Juif)[٢].

إنَّ جذور هذه المشكلة نتجت بفعلِ الخصائصِ الذاتية ليهود، فهم قتلة الأنبياء، وناشرو الفساد والسوء حيث ما حلُّوا، والعنصريون في نظرتهم لغيرهم، وبسبب ذلك لم يكونوا محلاً لِثقة أحد.

---

(١) **بيروبيجان**: منطقة قليلة السكان، تبعد عن موسكو العاصمة ثمانية آلاف كيلومتر في أقصى الشرق لجهة الصين. والاسم مشتق من وجود رافدين لنهر آمور فيها، هما: بيرو ـ وبيجان. في الإقليم بعض الثروات الطبيعية، ومواطنوه من إثنيات شتى أضيف إليهم يهود بعد قرار إنشاء إقليم مستقل لهم فيه في العام ١٩٢٨م، وبيروبيجان حالياً جزء من إقليم خباروفسك.

(٢) **المشكلة اليهودية**: مسألة اختلقها يهود في أوروبا، وقد بنوها على أسطورة السامية المزعومة في العهد القديم، ولأنهم مارسوا الانعزال والاستعلاء ونشر الرذائل والمفاسد، نبذهم المجتمع الأوروبي، فقالوا: «إن ذلك لاسامية وبالتالي ادَّعوا وجود مشكلة يهودية تحتاج لحلٍ، والأمر نفسه ينطبق عليهم في حل المواقع التي وجدوا فيها.

ومسار الجدل في مشروع «إسرائيل المنسية» بيروبيجان، أتى بسبب عدم نجاح توطين يهود الاتحاد السوفياتي في هذا الإقليم. وعند هذه النقطة، ذهب بعضهم إلى القول بأن السبب يعود إلى ما كانوا يحدثونه من شرور حيث ما حلُّوا، وآخرون كانوا يقولون بأن عدم النجاح سببه في الموقع الذي أُختير لهم، والذي لا يناسب أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، وذهب فريق ثالث إلى القول بأن القيادة السوفياتية وضعت حملة من المعوقات بغرض عدم إنجاح مشروع التوطين هذا.

إنَّ الامبراطورية الروسية، التي أصبحت الاتحاد السوفيتي فيما بعد، كانت تضم، وفق إحصاء أجري في العام ١٨٩٧م، خمسة ملايين يهودي، ولكن الهجرة بدأت بين صفوفهم بحيث تُّقدَّر، بين عامي ١٨٨١ و١٩١٤م، بمليوني نسمة. ويشير بعضهم إلى أن الهجرة كانت هرباً من القيود التي كانت تفرضها عليهم الامبراطورية الروسية حيث كانت تحدِّد لهم أماكن الإقامة، والسقف المسموح للعمل التجاري أو للتأهيل العلمي، وكان تنظيم ذلك على شكل حصص، والدافع لذلك هو رفضهم الاندماج في المجتمع، ولكنهم، أي يهود روسيا، كانوا يزعمون بأن التضييق الروسي عليهم كان وسيلة لإجبارهم على الدخول في المسيحية لتكون لهم حقوق كاملة كسائر المواطنين.

ولأنهم كانوا غير موثوقين مُنعوا من العمل في إدارات الدولة وفي صفوف وقيادات الجيش، ومن العمل التجاري خارج أحيائهم، كما مُنعوا من امتلاك الأراضي الزراعية لأن الزراعة كانت عماد الاقتصاد الروسي.

كما أنهم كانوا يتعرضون لتعديات أوقعت فيهم الخسائر على الصعيدين البشري والمادي، وكانت الذروة عام ١٨٨١م، بعد اغتيال القيصر ألكسندر الثاني، وكانت التهمة قد وُجِّهت إليهم في هذا الموضوع.

إنَّ «المشكلة اليهودية» كانت في سائر أوروبا، كما كانت في روسيا، ولهذا حصل توافق بين عدد كبير من النافذين بينهم على أنَّ الحل يكون في العمل على الذوبان والانصهار في المجتمعات التي يقيمون فيها، ومنها روسيا. وبشأن ثقافتهم ومواقفهم الفكرية الخاصة يكون الحل بتزاوج ثقافي بين ما عندهم وبين ما يسود في المجتمعات التي يقيمون فيها، لأن ذلك سيحوِّلهم إلى ثقافة جديدة جديرة بأن تجعلهم مقبولين من الآخرين، وبهذا الصدد دعا بعضهم إلى تبني التعليم اللاديني (العلماني)، وإلى اعتماد اللغة اليديشية (Yiddish)[1] بدل اللغة العبرية.

قال أحدهم، حول هذا الموضوع: «الآن، وبعد أن أضاء رِضى القيصر دياجير حياتنا، يتوجب على يهود أن يخلعوا عنهم الملابس الوسخة التي كانت تعزلهم عن جيرانهم، كما يجب عليهم أن يدعوا إلى إصلاح حاخاماتهم».

وفي العام ١٨٦٦م، نظَّم شاعر يهودي روسي اسمه: لايب غوردن (Leib Gordon) قصيدة يطالب فيها جماعته بالاندماج في مجتمعهم، ومما جاء فيها:

هذا البلد الأدنى (روسيا) يفتح لكم الآن أبوابه.
ها هم أبناؤه ينادونكم يا إخوان.
إلى متى تعيشون بينهم ضيوفاً.
فلا تبتعدون عنهم منذ الآن.

---

(١) **اليديشية**: Yiddish أو Yddish: لغة يستخدمها يهود أوروبا، وهي من الألمانية القديمة مع مؤثرات عبرية ومفردات دخيلة من لغات ولهجات أخرى، مصدرها القوميات والبلدان التي عاش فيها يهود، وبشكل خاص من السلافيين، وقد كتبوا فيها أدباً خاصاً، وكانت البديل المعتمد، في مشروع الإقليم المستقل في بيروبيجان، من العبرية.

ارفعوا رؤوسكم ومدوا هاماتكم.
سمِّروا فيهم نظرة يملؤها الحب.
دعوا أبواب قلوبكم مشرعة لتدخل الحكمة والمعرفة.
كونوا شعباً متنوراً والهجوا بلغتهم.
كونوا رجلاً يهودياً واحداً خارج خيمتكم.
وإخواناً لمواطنيكم وخدماً لمليككم.

إنَّ من تبنوا هذا النهج كانوا يدعون إلى الاندماج الكامل في الامبراطورية الروسية، أو في سواها من دول أوروبا مع المحافظة على الثقافة الخاصة اليهودية. ورغم أن قلة قد تبنَّت مثل هذا الطرح، مقابل دعوات للتخلي عن الخصوصية اليهودية كي يحصل الاندماج الفعلي ليهود في مجتمعاتهم، إلاَّ أن اغتيال القيصر ألكسندر الثاني (Alexandre II) جعل عهدي ألكسندر الثالث (١٨٨١ـ ١٨٩٤م) ونيقولا الثاني (Nicolas II) (١٨٩٤ـ ١٩١٧م) شديدي الوطأة على يهود روسيا، مما دفعهم إلى رفع وتيرة الكلام عن اللاسامية التي كانوا يرمزون بها إلى الرفض الذي يلاقيه يهود أوروبا من قبل مجتمعاتهم، وقد رسَّخ ذلك طرحاً مفاده أن الحلَّ يكون بدولة يهودية مستقلة، ومنهم من اعتبر أن هذه الدولة يجب أن تكون في فلسطين، التي يزعمون بأنها أرض إسرائيل.

والمشروع الصهيوني، المبني على هذه الأفكار، كان يريد أرضاً تتوافر فيها مساحات صالحة للزراعة لبناء اقتصاد قوي، وبذلك يكون حلُّ المشكلة اليهودية على صعيدين: اجتماعي واقتصادي.

وقد دفع ذلك بعض الصهاينة الذين التزموا الاشتراكية، من أمثال «غوردن»، إلى الجمع بين الفكرة الصهيونية والاشتراكية، وكان هذا الأخير يزعم بأن مثل هذا النمط يصلح لتأسيس دولة مستقلة يهودية في

فلسطين، إلاَّ أن فريقاً من الاشتراكيين من يهود صنَّفوا مثل هذا الطرح على أنه مجرد حُلُمٍ لا إمكانية لتحقيقه. وفي ظل التحولات وبعض الصراعات بين المزارعين الروس واليهود بدأ تحوُّل كبير عندهم إلى الماركسية، وما كان يُعرف بالطبقة الثورية، وفي هذا المناخ بدأ يزداد عدد الماركسين من يهود الذين شكلوا في العام ١٨٩٧م اتحاداً عاماً للعمال (Bund) من اليهود المنتشرين في روسيا وبولندا وليتوانيا، وقد دعوا إلى تعلُّم الروسية تمهيداً لتأسيس حركة اشتراكية مستقلة، وقد واجههم الوطنيون الروس بإنشاء حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي (POSDR) في العام ١٨٩٨م، وقد شكل هذا الحزب إطاراً جامعاً يقبل التنوع في الفئات المنتمية إليه، وبالمقابل رُفِضَ طلب الاتحاد اليهودي الذي يرمي إلى نيل حقٍ برعاية يهود جميعاً، وقد جاء الرفض من البلاشقة Bolchévik بقيادة ڤلاديمير لينين (Vladimir Lénine).

وقد تعاظم الرفض للصهيونية، التي صُنِّفت بأنها فكرة رجعية وغير واقعية، وأن ما تريده نقل ملايين يهود نحو بلدٍ صحراوي من أوروبا، وأنها ليست إلاَّ مجرد سراب.

وكان من أسباب الرفض للصهيونية أنَّ التيارات الثورية الماركسية في روسيا كانت تطرح نفسها بأنها تعمل لثورة اشتراكية عالمية، لا مكان فيها لإطارات خاصة على أساس ديني أو قومي، وإنما كانت تطرح نفسها على أنها تريد إنشاء مجتمع تسوده المساواة والعدالة، وفي ظل هذه الظروف الضاغطة على يهود روسيا هاجر قُرابة مليون شخص إلى الولايات المتحدة الأمريكية غالباً، وبعضهم إلى أمريكا اللاتينية وأوروبا الغربية.

أما الغالبية العظمى من يهود روسيا فقد كانت تتحرك نحو مشروع بيروبيجان بدافع ذي ثلاثة اتجاهات هي: الأرض الزراعية والاستقلال

واللغة. ومن هذا الاتجاه بدأت تتبلور فكرة تجميع الشتات اليهودي المنتشر في روسيا في منطقة بيروبيجان، وراهنوا على ذلك رغم ما كان يقوله لينين[1] وستالين[2] Joseph Staline قُبيل الثورة، على أن يهود روسيا لا يشكلون أمة، وإن كان لينين يتبنى في الوقت نفسه حلَّ مشكلةِ يهود، ورفع الاضطهاد عنهم.

وفي إطار البلاشقة، داخل الحزب الشيوعي، شكَّل يهود إطاراً سُمِيَ «مفوضية الشؤون اليهودية» تحت إشراف ستالين مباشرة، واستخدموا اللغة اليديشية لنشر فكر الحزب في وسط يهود.

وقد نشط الصهاينة على الانخراط في المجموعات اليهودية للحزب الشيوعي، وانقسموا بين متمسكين بالعبرية، وبين متبنين لليديشية، وقد لفت ذلك نظر لينين وستالين بعد الثورة وزرع عندهما المخاوف، فبدأوا بالضغط على أتباع اليهودية التي صنَّفوها عقيدة رجعية، ومجرد خُرافات، وزجُّوا بعضهم في السجون، فاضطر الصهاينة للعمل بشكل سرِّي.

---

(١) **لينين؛ فلاديمير** (١٨٧٠م ـ ١٩٢٤م): قائد الثورة الروسية في أكتوبر ١٩١٧م، وقد حكم الاتحاد السوفياتي السابق منذ الثورة حتى وفاته، وكان نظم البلاشفة بالتعاون مع ستالين قبيل الثورة، وإليه ينسبون تطورات وتجديداً في الماركسية اطلقوا عليها اسم: الماركسية اللينينية. له مؤلفات منها: «الدولة والثورة» و«ما العمل» و«الاستعمار قمة مراحل الرأسمالية».

(٢) **ستالين؛ يوسف** (١٨٧٩ـ ١٩٥٣م): تولى الأمانة العامة للحزب الشيوعي عام ١٩٢٢م، في عهد لينين، وخلفه في قيادة الدولة السوفياتية حتى وفاته. عُرف بتسلطه حيث أقصى مناوئيه على القيادة، وأبرزهم تروتسكي عام ١٩٢٧م، وقد برر إقامة إقليم يهودي مستقل في بيروبيجان عام ١٩٢٨م، وأسس للحرب الباردة بعد الحرب العالمية الثانية، وقتل في عملية الإلزام على الهجرة، ونقل السكان من مناطقهم أعداداً كبيرة، وهوجم بقوة في مؤتمر الحزب الأول بعد موته سنة ١٩٥٦م.

وفي أواسط العشرينيات من القرن العشرين، أعلن الشيوعيون بأنهم قد نجحوا بإطلاق مسيرة الاندماج اليهودي، وأن التحوُّل إلى الاشتراكية من قبلهم مجرد وقت، مع العلم أنَّ الحرب على العبرية والصهيونية قد أوجدت يهودية من نمط جديد.

وقد اتخذت الدولة السوفياتية قراراً بإنشاء مدارس وصحف تعتمد اليديشية، بالإضافة إلى جامعتين في كل من كييف ومينسك، من أجل الترقي بثقافة يهود، ولكن غالبيتهم رفضت ذلك معتبرة أنَّ هذه الجهود ما كانت إلا لضرب التقاليد اليهودية وليس لحمايتها، وقد شذَّ عن ذلك قلَّة قليلة اعتبرت أن الآفاق مفتوحة أمامها من خلال الثقافة الروسية لتنخرط في المجتمع الجديد، وقد جعلت هذه الفكرة، لاحقاً، الإقبال على كيان خاص في بيروبيجان ضئيلاً ويخلو من الإغراء.

من أجل مسايرة نهج الثورة الصناعي، انخرط الحرفيون من يهود، خلال الخطة الخمسية سنة ١٩٢٨م، في التعاونيات والمصانع الحكومية، لأن البقاء في العمل الحرفي الفردي سيؤدي إلى نبذهم وتصنيفهم في عداد البرجوازيين، وفي الإطار الآخر عملت الدولة على تثبيت بعض يهود في الريف، ووظفت ١٠٠٠٠٠ (مئة ألف) منهم في التجمعات الزراعية. ومع تزايد الدعم المالي لتطوير الزراعة كتب جيمس روزنبرغ James Rosenberg: «إنَّ اللاسامية جريمة في روسيا، لقد تم تحويل سكان الأحياء المنعزلة الروسية من يهود إلى عمال مهرة في المزارع والمصانع، وبالنسبة لنا يهود الولايات المتحدة الأمريكية لا نرى مشكلة يهودية في روسيا».

يفيد هذا القول بأن أحوال يهود روسيا قد تحسنت بعد الثورة، ولكن نظام المزارع الجماعية لم يكن واحداً، ففي الوقت نفسه كانت هذه المزارع أقلَّ جذباً ليهود في كل من روسيا البيضاء وأوكرانيا والقرم.

إلاّ أنه، مع تحوُّل المجتمع السوفياتي باتجاه الصناعة في برنامج ستالين، لم تعد المشاريع التي كانت في باب تأهيل يهود اقتصادياً من خلال الزراعة في مستوى الأهمية نفسها، خاصة بعد أن تمَّ حل الاتحاد العام للعمال اليهود، وفي هذا الظرف لم يبقَ سوى مشروع بيروبيجان صالحاً لليهود السوفيات، وقد عملوا له بأنفسهم مستندين إلى دعم المنظمات الأجنبية، ولكن مشروع بيروبيجان كان يقترن بالفشل منذ البداية، لأنه يقع في أقصى الشرق، ويُحتمل أن تدَّعي الصين أو اليابان ملكية هذه الأرض في وقتٍ ما.

ولأن الحلول الفاشلة لجهة إنهاء «المشكلة اليهودية» كانت تتوالى، فإن إيجاد منطقة يهودية مستقلة في أقصى الشرق السوفياتي في بيروبيجان كانت آخر المحاولات على هذا الصعيد.

المشكلة اليهودية السوفياتية وكيفية حلِّها؟

(مشروع بيروبيجان)

لقد قررت الحكومة السوفياتية، في العام ١٩٣٤م، إنشاء منطقة خاصة بيهود السوفيات في أرضٍ غير مأهولة، تقع في أقصى الشرق السوفياتي على حدود الصين، وتفصلها عن موسكو مسافة ٨ آلاف كيلومتر.

تُعرف هذه المنطقة باسم بيروبيجان، وقد اختيرت لتكون وطناً قومياً ليهود السوفيات، وكان هذا الخيار قرار الحزب الشيوعي بأن يكون ليهود السوفيات إقليم خاص تتفاعل فيه الثقافة العلمانية التي تستخدم اللغة اليديشية مع الفكر الاشتراكي، وكان ذلك برأيهم حلاً لمشكلة يهود السوفيات، ولصرف أنظارهم عن الهجرة إلى فلسطين.

بيروبيجان باتت مأهولة ونامية منذ ذلك التاريخ، ولا يزال الزائر يجدُ فيها مدرسة تعتمد اللغة اليديشية أو صحيفة أو إذاعة تعتمد اللغة نفسها، رغم أن نسبة يهود فيها قليلة.

إنَّ هذه المنطقة، التي تمَّ اختيارها لتحقيق تطلعات يهود السوفيات ورغبتهم في الاستيطان في وطن قومي يهودي، وصلت فيها نسبة السكان من يهود، عشية الحرب العالمية الثانية، إلى عشرين بالمئة، ولكن مع انتهاء الحرب بدأت تصادفهم مشكلات، على الصعيدين الفردي والجماعي، تحدُّ من جنوحهم إلى الاستقلالية والانعزال

ضمن نمطٍ يهودي، كما كان الأمر قبل قرار توطينهم في بيروبيجان.

إنَّ مراجعة حالة يهود، بعد سقوط النظام القيصري وقيام الثورة البلشيفية، تُبين بأنهم عاشوا عهداً من الحرية لم يعرفوه من ذي قبل، وقد شملت هذه الحرية الوضعين السياسي والمدني، ومن جهة أخرى فإن يهود السوفيات استقبلوا النظام الشيوعي بارتياح، رغم مبدأ الإلحاد الديني المعتمد من قبلهم، ولعل السبب أن قادة الكرملين كانوا قد وعدوا بالتزام قاعدة العدل وإعطاء الحقوق للأقليات الدينية والعرقية، هذا مع السماح بالتنوع الثقافي شرط التزام المنهج الاشتراكي، وما ذلك إلاّ لأن الاتحاد السوفياتي يضمُّ أزيد من مائتي مجموعة قومية أو إثنية أو دينية، وكان لينين وستالين من المنظِّرين لسياسة القوميات، ولكنهما، مع سائر القيادة، كانوا يعتقدون بأن البلاد تشهد مرحلة تحوُّل في ظل الاشتراكية، والنتيجة ستكون زوال الخصوصية التي تميِّز المنتمين لدين أو قومية، وفيما يتعلق بيهود فإن الحل التدريجي سيكون بالعلمنة واختفاء الدين، والاندماج في المجتمع السوفياتي.

إلاّ أنَّ القيادة السوفياتية كانت منهمكة في البدايات، بعد تسلمها الحكم، بإيجاد الحلول لمشاكل الفقر والبطالة وهذه الحالة أصابت يهود كسواهم، بعد ويلات الحرب الأولى وما رافقها من خسائر بشرية (١٩١٤ـ ١٩٢١م).

وعلى سبيل المثال، عرف يهود إقليم غومل (Gomel) في روسيا البيضاء حالة بطالة بلغت ٧٠٪، وبذلك شملتهم آثار الاضطراب السياسي والنزاعات الاجتماعية، مما دفع قيادة الحزب الشيوعي إلى وضع خطة لتغيير الواقع الاقتصادي ليهود من الحالة الحرفية، والعمل في التجارة والمسائل المالية إلى العمل في الزراعة، وهذا ما دفع إلى نقلهم إلى الرِّيف، وهذه القناعة كانت قد بدأت مع روسيا القيصرية في

القرن السابع عشر، يوم ضمت روسيا قسماً من بولندا كان فيه كثافة يهودية.

والنظرة، عند الإدارة القيصرية، إلى يهود كانت نظرة سلبية، تصنِّفهم طفيليين يستغلون الناس بسبب عملهم في التجارة والربا والخمر وما شابه ذلك، وكان القيصر نيقولا الأول أول من عمل على تحويلهم إلى الزراعة وصناعة القماش وغيرها من الأعمال التي تُعد مفيدة.

إلاَّ أنَّ هذه الخطوات التحويلية اقتصادياً لم تنجح بسبب تمسك يهود بمصادر دخلهم من الحرف والتجارة والرِّبا وغيرها، وعند اغتيال القيصر ألكسندر الثاني سنة ١٨٨١م، واتهام يهود بالضلوع في الجريمة، كان خمسون ألفاً منهم يعملون في الزراعة فقط، أي ما يعادل ٣٪ من يهود روسيا، وقُبيل الثورة البلشيفية كانت غالبيتهم تعمل في قطاع الخدمات.

لذلك جاءت خطوة قادة الكرملين الشيوعيين كسابقتها القيصرية المتمثلة في العمل لإدماج يهود في المجتمع الجديد، مع تحويلهم اقتصادياً إلى الزراعة وسكنياً إلى الإقامة في الريف، وذلك في إطار المساهمة في حل المشكلات التي يعاني منها الاقتصاد عموماً، ولهذه الغاية أنشأت حكومة الثورة منظمتين:

١ ـ شركة المستوطنات الزراعية اليهودية (Komzet).

٢ ـ مجموعة المستوطنات الزراعية للعمّال اليهود (Ozet).

وكان الغرض من هاتين المنظمتين الرسميتين نشر الدعاية بين يهود التي تشجعهم على الاستيطان في الريف والعمل في الزراعة، وكان نشاط هاتين المنظمتين تحت إشراف الحزب الشيوعي. وبعد العام ١٩٢٨م، حيث صدر القرار الرسمي بتوطين يهود في بيروبيجان، تحوَّلت جهود هاتين المنظمتين نحو هذا الإقليم، وقد نجحت نسبياً

حيث قُدِّر عدد العاملين في الزراعة من يهود بما يقارب ٢٣١ ألفاً هم أفراد ٤٧ ألف أسرة، وذلك في العام ١٩٣٩م.

كان ولا يزال الغموض يلفُّ ظروف وأسباب صدور قرار حكومي سوفياتي في العام ١٩٢٨م، باختيار بيروبيجان مكاناً لتوطين يهود السوفيات، وهو إقليم يساوي مساحة بلجيكا (٣٠٥١٣ كلم[٢])؛ وقد تمَّ ضمُّه إلى الامبراطورية الروسية عام ١٨٥٨م، وقد اشتق اسم الإقليم من رافدين فيه لنهر آمور هما: بيرو ـ بيجان (Biru - Bidjan).

يتميز الإقليم بمناخ حارٍ صيفاً وممطر بارد شتاءً، وهو غني بالموارد الطبيعية خاصة قسمه الشمالي. وكان يقيم في الإقليم، حتى تاريخ القرار، نحو ٢٧ ألفاً من أصول روسية وأوكرانية وقوقازية، يتوزعون بين الجهة الشمالية المحاذية لسيبيريا والجهة الجنوبية من الإقليم.

أما الهدف ـ كما يبدو ـ من القرار فهو دفع يهود باتجاه الزراعة، وهذا اتجاه بدأ منذ العام ١٩٢٤م بعد الثورة، لأن النظرة إليهم قبل ذلك كانت تصنِّفهم على أنهم طفيليون، يعيشون من الكسب من مهن غير مجدية ـ كما مرَّ سابقاً ـ. ورغم تباين المواقف حيال هذا المشروع بين يهود، إلا أن الحكومة سارت فيه لتوقف توافد يهود إلى أوكرانيا وروسيا البيضاء والقرم منعاً لحالة الرفض والتصدي التي كان يقوم بها أهل هذه الأقاليم رافضين توطين يهود بينهم، وكان فريق آخر يرى في هذا الإجراء عملية إنماء زراعي للإقليم بالإضافة إلى وضع سدٍّ أمام النوايا التوسعية الصينية أو اليابانية.

إن سبب العمل لحل مشكلة يهود الاتحاد السوفياتي كان إحساس القيادة بأنهم في موقع شاذ يختلف عن حال أقليات أخرى، ولذلك لا بد من حل وضعهم، وكانت المفاضلة بين بيروبيجان وفلسطين. ولقد كتب أحدهم، سور ريسكي، كتاباً عنوانه: «بيروبيجان وفلسطين» أبرز

فيه أنه ممن يفضلون إقامة كيان يهودي في بيروبيجان، وكان كثيرون يرون ذلك أملاً بأن يطوروا ثقافة يديشية لا عبرية تتزاوج مع الاشتراكية الماركسية المطبَّقة حديثاً، ومن خلال ذلك التعليم اللاديني (العلماني) يتخذون دورهم الوطني السوفياتي.

والذي ساعد على هذا المناخ لينين، أول رئيس بعد الثورة، حيث أراد استمالة يهود بلاده من خلال الإقرار لهم بالخصوصية الثقافية وهذا ما يرغبونه. ونُقِلَ عنه أنه قال: «إنه لأمر طبيعي أن يتطلع يهود إلى موقع لهم، فهذه سمة من يريد أن يحافظ على هويته، وهذا أمر يرجوه يهود، وتحقيقاً لهذه الغاية يجب العمل من أجل استقرار يهود اقتصادياً، من خلال العمل بالزراعة بأعداد كبيرة، وعندها يجدون بأن مواطنيتهم لا غبار عليها، وبناء على ذلك ستسهم عملية توطينهم في بيروبيجان في تحويلهم إلى مواطنين يقومون بالمطلوب في إطار البناء الاشتراكي»[١].

تنفيذاً لهذا التوجه، صدر قرار تخصيص إقليم بيروبيجان سنة ١٩٢٨م ليهود، وبدأ تشجيع الهجرة إليه من قبلهم وفي الوقت نفسه كان يحظر على سواهم أن يستقرّ في هذا الإقليم، وكان في نص القرار بأنه إذا ما نجحت عملية استقرار يهود في هذا الإقليم واشتغالهم بالزراعة فإنهم سينالون حق تأسيس وحدة إدارية وطنية يهودية.

ولقد تحول الحلم إلى حقيقة سنة ١٩٣٤م، حين تمَّ إعلان بيروبيجان وطناً يهودياً مستقلاً، وهكذا تكون دولة العدو الصهيوني

(١) يلاحظ في هذا الموقف أن لينين الذي يلتزم الماركسية وفيها الطرح الأممي، والالتزام باللادينية والعلمانية؛ لا بل الالتزام بمحاربة الدين، وهذا ما فعلوه مع المسيحيين ومع المسلمين حيث منعوهم من أداء الشعائر الدينية، وحولوا بيوت العبادة إلى متاحف، ولكنه مع ذلك يقر بخصوصية يهودية ويشجع على استيطان يهودي في إقليم خاص يستقلون به هو بيروبيجان.

الأولى، قبل اغتصاب فلسطين بأربعة عشر عاماً، قد قامت في الاتحاد السوفياتي السابق. كان الهدف أن يتوافد إلى الإقليم يهود الأكثر فقراً ليصبحوا منتجين من خلال الزراعة، وقد قال أحد الأشخاص الذي كان بين أوائل المستوطنين: «أشكركم، أيها الرفاق، لأنكم بعثتم بي إلى هذه المنطقة، وسأعمل وأبني وسأكف عن العيش اليهودي»، ويقصد بذلك العيش من مهن كانت تصنف، ماركسياً، غير منتجة كما ورد سابقاً.

أما رئيس الإقليم، وهو عضو فاعل في الحزب الشيوعي سيمون ديمونشتاين Semen Dimanshtein فقد قال: «إن الاستيطان المنظم في الإقليم اليهودي المستقل سيؤدي إلى تحسين الانتاجية لدى يهود من الفقراء».

وظَّفت القيادة السوفياتية إمكانات مهمة لتحقيق غايتها في تحويل يهود إلى العمل بالزراعة مع الاستيطان في بيروبيجان، وقد قدمت لهم القروض الميسَّرة، والامتيازات الماديَّة، والمساعدات الغذائية، وكان الشخص الذي يرغب بهذه الاستفادة يسجِّل اسمه في المكتب المحلي للوكالة التي كانت تقوم بإسكانهم عبر المفوضية الزراعية.

حوَّل هذا الإجراء من قبل الحكومة يهود إلى مجموعة منتجة بدل أن كانوا يصنَّفون لمدة طويلة على أنهم من الفئات السلبية والمعطَّلة إنتاجياً، وكان لهم بعد ذلك حق الانتخاب داخل الإقليم، شرط أن يكون واحدهم من العاملين في الزراعة.

هذه الإجراءات لم تعطِ الثمار المرجوة، لأن المستوطنين اكتشفوا أن أرض الإقليم تحتاج لجهود وإمكانات كي يتم استصلاحها، وترافق مع ذلك تراخي الدولة في مواصلة تقديم المساعدات والامتيازات،

يضاف إلى ذلك البيروقراطية[١] التي سادت المزارع الجماعية ومزارع الحكومة، فتحولت بذلك إلى إدارة سيئة، وبدأ العدُّ العكسي مع التراجع الكبير في الإنتاج، وذلك هدَّد استمراريتها.

هذا الواقع، الذي سببه القرار المرتجل، جعل خطوة الاستيطان هذه تجهض في مهدها. ومن الصور حول هذا الأمر ما كتبه صحفي اسمه (ڤيكتور فينك) (Viktor Fink)، وهو سوفياتي رافق بعثة أميركية كانت تجمع المساعدات ليهود لمساعدتهم على الاستيطان في بيروبيجان؛ وقد قال: «إن ظروف الحياة والاستقرار بحدِّه الأدنى لم تكن متوافرة في الإقليم، وإنه كان في تيخونكايا (Tikhonkaïa)، قرب محطات القطار، مخيمات لإيواء الوافدين من يهود للعمل في الزراعة، وهي أماكن سكن مؤقتة، ولكن سوء التخطيط وعدم توفير ما يلزم لم يحمل بعضهم على البقاء فيها أكثر من عشرة أشهر، والسبب عدم توافر الإمكانات للاستيطان كآلات استصلاح الأراضي، وتوفير المياه حتى للشرب، بالإضافة عدم وجود وسائل النقل المناسبة لعبور أراضي الإقليم التي كانت معظمها سبخية».

ومما نقله هذا الصحفي أن بعضهم ممن تطول إقامته وتعضُّه الحاجة كان يعتمد التسوُّل، كما أن بعض النسوة لجأن إلى الدعارة، وكان كل ذلك بسبب سوء التخطيط وفقدان الخطوات المدروسة.

ختم فيكتور فينك قائلاً: «لقد كان القرار ببدء الاستيطان في بيروبيجان في غياب أية خطة أو دراسة مسبقة، وترد المشاكل التي حصلت للطريقة المتسرعة التي بدأ بها إنجاز مشروع الاستيطان اليهودي في بيروبيجان».

---

(١) **البيروقراطية**: Bureaucratie: نظام إداري حكومي مغالى فيه لجهة التعقيدات والروتين مما كان يعرقل سير الأعمال في إدارات الدولة، وقد ساد ذلك في ظل الأنظمة الشمولية التي اعتمدت نظام الحكم المركزي لحزب أو شخص.

وزاد الأمر سوءاً نقص الخبرة، وقلة العدد في الموظفين الذين أوكلت إليهم عملية إدارة الاستيطان في الإقليم، مضافاً إلى ذلك نقص التجهيزات واللوازم.

وبسبب طبيعة أرض الإقليم السبخية تفاقمت المشكلة، وقد كتب أحدُ من عاشوا التجربة فقال: «كانت عجلات العربات تنغرز في أوحال الطرق غير المؤهَّلة للعبور عليها، وكان المستوطنون في الغالب يفاوضون الموظفين ليحصلوا على أراضٍ بمواصفات أحسن من غيرها» كما كان المستوطنون يعانون من البعوض الشرس والحشرات المتنوعة التي تؤذيهم أو تؤذي زراعتهم، وقد تبع ذلك انتشار الأمراض والأوبئة بسبب ضعف الرعاية الصحية، وكان عدد كبير يقيم في العراء بدون مأوى بسبب ضعف الإمكانات، والأسلوب السلحفاتي في التنفيذ والإجراء بسبب البيروقراطية القاتلة، وجاء بعذ ذلك العامل الطبيعي حيث حصلت فيضانات كبيرة في عامي ١٩٢٨ و١٩٣٢م، قضت على ما كان قيد الإنشاء، فبدأ العمل البنيوي من جديد.

لم تتوقف سلسلة العوائق عند هذا الحد، بل كان في أساس مشروع الاستيطان هذا ثغرة أساسية تتمثل في عدم الرغبة في العمل الزراعي عند قبيل من يهود الاتحاد السوفياتي ـ كما حالهم دوماً حيث يميلون للعمل في المسائل المالية والإعلامية وغيرها ـ والوجه الآخر، للموضوع هو عدم وجود خبرة زراعية عند الغالبية الساحقة منهم، وعند الشروع في تنفيذ قرار التوطين في بيروبيجان سنة ١٩٢٨م لم يكن بينهم من يملك المؤهلات للعمل الزراعي ولو بالحد الأدنى، وبناءً لتقرير أعدته الوكالة المعنية بتنفيذ القرار في العام ١٩٣٢م، تبيَّن أن ستة آلاف ممن وفدوا إلى الإقليم كانوا يقيمون قبل ذلك في المدن الكبرى في روسيا البيضاء وأوكرانيا، وكانوا يعملون في مهن كالحدادة والخياطة والنجارة.

هذه الأصول المهنية أدت إلى هجرة عدد ممن وفدوا إلى بيروبيجان للزراعة والأرض، وكان مقصدهم المدن في أقصى الشرق السوفياتي، لمدينة خباروفسك Khabarovsk، ومدينة فلاديفوستوك Vladivostok، وقسم عاد إلى المدن التي أتى منها، حتى من بقي في الإقليم آثر الإقامة في مدنية بيروبيجان ليعمل في التجارة والإدارة وما شابه ذلك، يضاف إلى ذلك التعاطي من قبل يهود بحذر مع المشروع، لأنه تمَّ نقلهم آلاف الكيلومترات بعيداً عن مواقع سكنهم الأصلي، وكذلك عدم رغبتهم في التحوُّل إلى الزراعة، فهي مهنة لم يكونوا على دراية بها، والأرض والإقليم كانتا تحتاجان لجهود وإمكانات لم توفرها الدولة ـ كما ذكرنا سابقاً ـ، وبذلك تراجع الموضوع لعاملين:

١ـ عدم وضع المشروع في أولويات الدولة السوفياتية.

٢ـ عدم وجود الرغبة اليهودية بالاستيطان في إقليم بعيد في أقصى الشرق، هذا مع العمل في الزراعة، وهذا غير مرغوب عندهم كذلك.

صدر، خلال هذه الأجواء، قرار سنة ١٩٣١م ينص على أن إقليم بيروبيجان وحدة إدارية مستقلة خاصة باليهود السوفيات، والقرار يستمر حتى نهاية العام ١٩٣٣م.

لكن واقع التعامل الحكومي لم يرضِ يهود الذين كانوا يتوقعون أن يكونوا ملاَّكاً للأرض، وإذا بهم في مزارع حكومية، وبذلك مالوا عن الزراعة، يضاف إلى ذلك الحاجة في الإقليم لمَنْ يعملون بالتجارة أو في سائر مرافق قطاعات الخدمات؛ لكل هذه العوامل يمكن القول إن مشروع بيروبيجان قد حمل في ولادته بذرة موته.

تأسيساً على ما تقدم، وانطلاقاً من مجريات الأمور، نرى بأن المحاولة، رغم كل ما ذكرناه سابقاً، مضت مدعومة بأساليب الدعاية والترغيب وإن كان المشروع قد اعتراه في الأصل الارتجال، والإدارة

السيئة، وترافق مع ذلك ضآلة الإمكانات الموظفة حكومياً لإنجاح المشروع، وقد استقطب بفعل الدعاية عدداً غير قليل، ويروي يهودي اسمه باكوف بلخمان بأن رابطة الشباب الشيوعيين في أوروبا كانت قد أوفدته عام ١٩١٤م ليعمل في البناء، لكنه بعد القرار استقر في بيروبيجان بناء لتشجيع أحد المستوطنين في الإقليم.

وقيادة الدولة السوفياتية في الكرملين نوَّعت اساليب الدعاية، وكان من ذلك إخراج فيلم عنوانه: «الباحثون عن السعادة» في العام ١٩٣٦م؛ وكان قد تمَّ تصوير عدد من مشاهده في بيروبيجان، واستخدم في أدواره الرئيسة عدد من الممثلين من يهود منهم بنجامين زوسكين. والفيلم يدور حول قصة عائلة يهودية فقيرة، وقد تخلصت مما هي فيه، ووجدت سعادتها في بيروبيجان من خلال التكوين الصهيوني السوفياتي.

وكان من أشكال الدعاية أيضاً تكليف الرسام اليهودي ميخائيل دلوغاش Dlugach بأن يرسم مجموعة لوحات دعائية للاستيطان في إقليم بيروبيجان توضع على أوراق يانصيب بهدف جمع الأموال التي ستخصص للاستيطان في الإقليم.

والنشاط السوفياتي الثالث في الميدان الدعائي كان من خلال استئجار طائرة اطلقوا عليها اسم: بيروبيجان؛ تنقلت ما بين روسيا البيضاء وأوكرانيا، حيث الكثافة اليهودية، في رحلة استغرقت أسبوعين في العام ١٩٣٣م، وكانت توزع المنشورات التي تدعو إلى الاستيطان في الإقليم الجديد.

وإذا كانت أحوال سكان الإقليم قد تحسنت في بدايات خطوات تنفيذ قرار الاستيطان عام ١٩٢٨م، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً وقد بدأت الأحوال تتردّى، وعلى سبيل المثال فقد كتب في سنة ١٩٣٥م طبيب

زار الإقليم يصف الوضع الصحي المتردي، ومما جاء في تقريره: «توجد أكثر من حفرة للنفايات في كل بيت، والشوارع والساحات العامة لا يتم تنظيفها ورفع النفايات منها».

وفي تقرير صدر في العام ١٩٣٧م: «إن سكان بيروبيجان بلغوا حوالي ١٠ آلاف مواطناً، ورغم هذا العدد لا تتوافر في الإقليم شبكة صرف صحي، ولا إنارة للشوارع العامة».

هذه الصعوبات لم تحد من النمو السكاني، وعشية الحرب العالمية الثانية بلغ سكان مدينة بيروبيجان، عاصمة الإقليم، لوحدها أكثر من ثلاثين ألفاً، وباتت هذه المدينة مركزاً لإنتاج الإسمنت والقصدير، وحجارة الطوب للبناء، والملابس وعجينة الورق، وكان الإقليم بذلك يحذو حذو الشرق الأقصى في النمو الاقتصادي.

ولأن الدعاية الرسمية السوفياتية استمرت تحث على الاستيطان في الإقليم، وأن السعادة ستتحقق في المستقبل لمن يجازف ويهاجر إليه، فقد وجدت الوكالة المعنية بتنفيذ المشروع نفسها مضطرة إلى استقدام أيدٍ عاملة وقوى إنتاج من غير يهود بداعي الحاجة، دونما اعتبار للدين أو العرق أو القومية.

ولأن الخطط الخمسية للتنمية قد بدأت فإن الواقع لم يعد يحتمل ربط الاستيطان في الإقليم بيهود، فقد كان في قرارات الخطط بين عامي (١٩٣٣ ـ ١٩٣٧م) أن يستوطن ٣٠٠ ألفاً نصفهم، على الأقل، من يهود حتى يبقى الإقليم بالطابع الذي أُريد له، ولكن رصد ماجريات عملية الاستيطان بيَّن أن عدد غير يهود تجاوز عدد المستوطنين من يهود، وكان هؤلاء أقل من غير يهود من الروس والأوكرانيين والقوقازيين.

وقد قال سيمون ديمونشتاين Semen Dimanshtein ـ وهو من المعنيين بتنفيذ القرار ـ في العام ١٩٣٤م: «لم نُحدد لأنفسنا هدفاً يقضي بإيجاد

أغلبية يهودية في الإقليم بصورة سريعة، ونحن متأكدون بأن ذلك سيتم بشكل طبيعي، ولكن مهمتنا كانت تقوية البناء الاشتراكي في الإقليم، ولهذا كنا نستقبل أية مساعدة أو هجرة من غير يهود، فذلك يعد دعماً حيوياً لتنفيذ قرار إقامة الإقليم المستقل».

المستوطنون الأجانب والدعم الدولي

إن الدعاية لمشروع بيروبيجان اجتذبت عدداً من المستوطنين غير السوفيات من يهود، وكانت قد صدرت نشرة سوفياتية بالإنجليزية تظهر للقارئ إنجازات الإتحاد السوفياتي، وكان بين ذلك نشرة خاصة بالحديث عن الإقليم اليهودي المستقل في بيروبيجان، وقد أثمر ذلك أن وفد أكثر من ١٠٠٠ يهودي إلى الإقليم.

صدر قرار، بدءاً من العام ١٩٣٥م، يُلزم الأجانب بدفع مئتي دولار بدل مواصلات داخل الاتحاد يتم دفعها للوكالة المعنية بتنظيم عملية الاستيطان (Komzet)، وكان أغلب الوافدين من أصول روسية، وهم مصابون بخيبة أمل مما كانوا يعانونه حيث كانوا يعيشون في أوروبا وأمريكا، وقد دفعهم إلى ذلك رغبتهم بالعمل في بناء الاشتراكية والإفلات من كبت النظم الرأسمالية التي كانوا يعيشون في ظلها، وكان من دوافعهم الرغبة المحمومة للعمل في الزراعة.

أما بالنسبة ليهود فقد جذبت الدعاية بعضهم إلى بيروبيجان، ومن ذلك، كما تقول التقارير، إن اثنتين وثلاثين عائلة يهودية من لوس أنجلوس في الولايات المتحدة الأمريكية قد باعت كل ممتلكاتها، وهاجرت كي تستوطن في بيروبيجان سنة ١٩٣٠م، لكنهم لم يمكثوا طويلاً بسبب المصاعب وتردي الأوضاع، وعادوا من حيث أتوا ليسكنوا في كاليفورنيا في السنة التالية.

ويذكر يهودي بولندي استقر في الأرجنتين، ووصل إلى منصب رئيس الحزب الشيوعي الأرجنتيني، أن جماعات من يهود الأرجنتين قد هاجرت إلى بيروبيجان لتستوطن في الإقليم المستقل.

ومن الحوادث المحيطة بشأن الاستيطان في الإقليم المستقل، حادثة عائلة هاجرت إلى بيروبيجان من منروفيا بكاليفورنيا سنة ١٩٣١م، هي من موريس Morris وزوجته رؤز بيكر Rose Becker وطفلهما. وموريس بالأصل يهودي روسي سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية مع والديه، ومارسوا العمل في الزراعة، وهناك تزوج من روز، التي كانت تشاركه فكره الاشتراكي الصهيوني. ورغم أنه كان يمتلك أرضاً زراعية، فقد تركها وسافر إلى بيروبيجان يدفعه الحماس للمساهمة في بناء الاشتراكية.

وما لبثت أن توالت المآسي على العائلة في الإقليم المستقل، فقد توفيت روز جراء ضربة شمس، كما تقول ابنتهما أليزابيت Elizabeth وبعدها توفي الزوج موريس بسبب الوضع الصحي المتردي في الإقليم، وتذكر أليزابيت أن العائلة كانت تعزم على العودة إلى حيث أتت لو لم يدرك الزوجين الموت.

لقد ثار جدل واختلاف وسط يهود العالم حول مشروع بيروبيجان، حيث عارضه فريق منهم، لأنه برأيهم لا يلبي التطلعات اليهودية، وقسم منهم كان متحمساً له، وكان يستثير مشاعر يهود أوروبا وأمريكا لدعمه، وكان من الأسماء البارزة الداعمة للمشروع الكاتب الألماني اليهودي ليون فوشتوان غلير Feuchtwan Gler الذي سافر إلى موسكو في العام ١٩٣٧م، وقال يومها: «إن الجمهورية الاشتراكية اليهودية في بيروبيجان حقيقة واقعة».

وكان قد تطوع أنصار الإقليم في مدن كثيرة في لجان بهدف

التعريف به ودعم الاستيطان فيه، وكانت أبرزها جمعية توطين يهود في الاتحاد السوفياتي (Icor)، ومؤسسوها يهود موالون للاتحاد السوفياتي في أواسط العشرينيات من القرن العشرين، وكانت تشجع يهود على الهجرة إلى الإقليم، والتحوُّل إلى العمل في الزراعة.

لقد لعبت هذه الجمعية دوراً مهماً في تنفيذ سياسة الاستيطان اليهودي في بيروبيجان، وتركز نشاطها حول هذا الأمر بعد صدور القرار بذلك عام ١٩٢٨م، وقد عمل عدد من اللجان المحلية التابعة لها لهذه الغاية، ويقدر عدد الناشطين في هذا السبيل بأكثر من ألف شخص؛ وكان اهتمامهم منصباً حول جمع الأموال التي بلغت مئات ألوف الدولارات، وقد خصصت لتحسين الخدمات في الإقليم ومنها الوضع الصحي، أو لشراء آلات وتجهيزات لتطوير الزراعة أو المصانع المحلية، وقد خصصت الجمعية مبلغاً لشراء تجهيزات طباعية ساعدت على إصدار صحيفة شهرية اسمها: الحياة الجديدة Nouvelle Vie، وكانت تهدف إلى الارتقاء بالمستوى الثقافي للمستوطنين، وللإشارة بالقرار السوفياتي القاضي بإنشاء وطن قومي يهودي في بيروبيجان.

وأنشأت الجمعية فروعاً لها في أوروبا وأمريكا الجنوبية، خاصة في الأرجنتين والأورغواي وتشيلي، وقد بلغ أعضاؤها في هذا البلدان قرابة الألف، وأصدروا نشرة سنوية تدعم مشروع الإقليم المستقل في بيروبيجان بالمال أو بالحض على سفر يهود إليه.

وبرزت في هذا المضمار لجنة اسمها: «لجنة المراهنات الأمريكية» كانت تتظاهر بالشيوعية، وتمكنت من جمع أموال طائلة دعمت بها عملية الاستيطان أو أُضيف إلى ذلك جهدها في تجنيد المستوطنين.

كل هذا كان جهداً يهودياً لدعم مشروع إقليم يهودي مستقل، ولكن أضيف إلى ذلك جهود غير يهودية منها نشاط عضو مجلس اللوردات

البريطاني اللورد مارلي Marley الذي كرَّس جهده وحياته لحزب العمال بعد استقالته من البحرية البريطانية في العام ١٩٢٠م.

عندما رجع اللورد مارلي من زيارة إلى بيروبيجان في العام ١٩٣٣م، كتب تقريراً أبدى فيه حماساً كبيراً للمشروع الاستيطاني اليهودي، ونصح بالأخذ بعرض سوفياتي يقضي باستقبال يهود ألمانيا الذين يعانون من الاضطهاد ليسهموا مع سواهم في إنشاء جمهورية أو إقليم مستقل في بيروبيجان.

وتجند فنانون لدعم المشروع في أوروبا وأمريكا، وعملوا على التعريف بالإقليم والقرار الاستيطاني، من خلال عروضهم الفنية، وأقاموا لذلك معارض في بوسطن ونيويورك وموسكو إبَّان العام ١٩٣٦م، على أن ينتهي المطاف بهذه الأعمال الفنية في الإقليم، ولكن ذلك لم يحصل، واكتنف الغموض ما حصل. والسؤال هل أخفى ذلك مجموعة من الصهاينة الذين كانوا يعملون لاغتصاب فلسطين وصرَّحوا بأنهم لا يريدون بديلاً منها؟. أم أن الحاجة الأوروبية لزرع جسم غريب في قلب الأمة العربية بفلسطين، وهي حاجة استعمارية، عملت لذلك؟ أم أن يهود والذين لم يكونوا يرغبون بالتحوُّل إلى العمل الزراعي فعلوا ذلك؟

الواقع الثقافي
في الإقليم اليهودي المستقل

لقد أظهرت الحكومة السوفياتية جدِّيتها في قرار إنشاء وطن قومي يهودي في بيروبيجان، عندما خصصت جهوداً ثقافية لإبراز وإثبات الخصوصية اليهودية، وكان ذلك من خلال دعم اللغة اليديشية، التي تشكل أحد أبرز المقومات لأمة أو كيان يهودي سوفياتي.

ودعا الكرملين بهذا الصدد إلى اعتماد اللغة اليديشية مع اللغة الروسية في الإعلان، وإبرازها على أنها اللغة الوطنية لليهود السوفيات في مواجهة اللغة العبرية L'hébreu، التي كانوا يعتبرونها لغة يهود الشرقيين.

وهذا العمل إنما كان هدفه تكريس ثقافي خاصة بيهود السوفيات تتماشى مع شعار الوطنية شكلاً، ومع بناء الاشتراكية محتوى، وبذلك يكون قرار بيروبيجان خطوة نحو مركز جديد للحياة اليهودية، تظهر فيه الثقافة اليديشية التي تعكس فعلياً مشاعر يهود السوفيات.

وأصدرت الحكومة السوفياتية سنة ١٩٣٦م قراراً يعزِّز موقع المؤسسات الثقافية اليديشية اليهودية، وكان التخطيط لانعقاد مؤتمر سنة ١٩٣٧م ولكنه لم يؤد إلى إنشاء مؤسسة أكاديمية في بيروبيجان تكون مؤهلة على نشر وتثبيت اليديشية كخصوصية ليهود الاتحاد السوفياتي.

وقد بدأ التنفيذ بعد عام ١٩٣٥م، حيث ظهرت اليديشية إلى جانب الروسية في كل ما يتعلق بالإقليم من إعلانات، ووثائق ولوحات إرشاد

على الطرقات في الشوارع، ومحطات القطار، وعلى الطوابع البريدية، يضاف إلى ذلك لغة محاضر تحقيقات الشرطة إذا كان أطراف الخصام من يهود.

يعود السبب في حصول يهود على هذه الامتيازات إلى ما كانوا يحتلونه من مناصب في الحزب والدولة، مما جعل الدولة في حالة اهتمام بكل ما ليهود من خصوصيات ومطالب في بيروبيجان، ومن ذلك تأسيس جريدة ومكتبة يهوديتين، وبعد ذلك أنشىء مسرح يهودي تحت اسم «لازار كاغانوفيتش» Lazar Kagannovitch، والاسم تخليد لأحد المقربين من يهود لستالين، كما أنه وفد إلى الإقليم أعضاء مسرح الدولة من يهود حيث قدموا عروضاً تجسد الثقافة اليهودية باللغة اليديشية.

أما بالنسبة للتعليم فقد أنشأت الدولة عدَّة مدارس في الإقليم كانت تعتمد اليديشية لغة للتعليم، وفي قسم منها كانت اليديشية لغة إلزامية إلى جانب الروسية.

وكان دور للكتَّاب من يهود باللغة اليديشية، حيث كانوا يقومون بزيارات دورية إلى الإقليم لتأييد النهج المعتمد الذي يحقق التطلعات اليهودية الثقافية وفي وطن قومي خاص بهم.

من الذين حضروا إلى الإقليم الكاتب اليهودي باليديشية داڤيد برجلسون David Bergelson، وقد جاء ليشترك في ملتقى ثقافي سنة ١٩٣٢م، وقد شجَّعت زيارته آخرين ليحذوا حذوه.

وعندما صدرت المجلة الأدبية «قبل البريد Forpost (avant poste) بدءاً من العام ١٩٣٦م، استقبلها النقاد على أنها جهاز إعلامي يهودي مهم، وكان لها دعم ورعاية مما جعل منها منبراً للقوى المحلية في بيروبيجان، ولكل المؤمنين بإقامة إقليم مستقل ليهود في بيروبيجان، ومن وجوه الاهتمام الثقافي باليديشية أن مؤتمر الحزب المنعقد في

الإقليم في العام ١٩٣٦م كان قد عرف إلقاء عدد من الخطب بهذه اللغة.

إن الإجراءات الثقافية في بيروبيجان في هذا السياق كانت مناسبة للنظام السوفياتي، كما أن الصحف كانت تركز على المكاسب التي سيحصل عليها مستوطنو الإقليم من يهود، وكان ذلك يصب في خانة المديح والإشادة بالنجاحات التي تحققت في عهد ستالين في البناء الاشتراكي، وعبر الخطط الخمسية.

لقد اتجهت الدعوة إلى ثقافة يهودية جديدة يجب أن تنشأ مع الإقليم الجديد، يتحول فيه أتباع اليهودية إلى مواطنين منتجين من خلال الزراعة والصناعة، وكان ذلك أشبه ما يكون بانقلاب على المفاهيم اليهودية المتوارثة والتقليدية، وكان دعاة هذا الاتجاه يدعون إلى التحرر من التقاليد وأثقال الماضي اليهودي، ليؤسسوا حياة جديدة من خلال البناء الاشتراكي.

وانتقل الاهتمام الدعائي بالإقليم إلى الكتابات الأدبية، فظهرت في تلك الآونة روايتان معنونتان: «بيروبيجان» لكل من داڤيد برجلسون وم. ألبرتون Alberton، وكانتا تشيدان بجدوى الحياة اليهودية في الإقليم، كما أنهما وضعتا الخطوات الأولى اللازمة لقيام مجتمع يهودي جديد ومستقل.

لكن هذا المجتمع الجديد كان يقوم على الدعوة للبناء الاشتراكي والثقافة اليديشية، وليس على العبرية والمفاهيم التقليدية لليهودية، ولهذه الغاية تمَّ تنظيم التعليم بما يخدم هذا الهدف.

كانت توجد ست عشرة مدرسة في الإقليم في العام ١٩٣٧م، يتعلم فيها حوالي ألف طالب، وكل موادهم باللغة اليديشية، وكان المقرر في الكتاب المدرسي لمادة الجغرافيا أن يحوي جغرافية بيروبيجان مع

التركيز على الثروات والجوانب الاقتصادية، لتأصيل مشاعر الارتباط بالإقليم عند الدارسين.

سار التعليم في هذه المدارس مساراً مخالفاً للمدارس اليهودية الموجودة في أوكرانيا وروسيا البيضاء، حيث كانت هذه الأخيرة تهتم بالعلوم الدينية اليهودية التقليدية وباللغة العبرية، بينما كانت الأولى تعمل على تغذية الروح الوطنية السوفياتية، والدعوة للانخراط في مسيرة البناء الاشتراكي، وتعميق الولاء لستالين، الذي قرر قيام الإقليم الوطن المستقل وكل ذلك باليديشية، كما سبق القول.

كما أن مدارس بيروبيجان كانت تنشر ثقافة تبرز حياة الفقراء والكادحين ومعاناتهم، وتركز على الصراع الطبقي، والدعوة للاستقلال والتمرد على المؤسسات اليهودية التي يسيطر عليها الحاخامون.

لاحظ يهود ذلك، فكتب زيفي جتلمان Zivi Gitelman مبدياً رأيه في المدارس اليديشية في العشرينات من القرن العشرين، فقال: «إن المدارس اليديشية تختلف تماماً عن المدارس الأخرى في الشكل والمضمون، وبطبيعة الحال ليس التاريخ اليهودي وحده الذي تعرَّض للتحريف إلى درجة غدا التعرف عليه مستحيلاً». إنه بهذا يشير إلى القراءة الشيوعية السوفياتية للتاريخ بما يناسب الماركسية والبناء الاشتراكي، وهو بذلك يظهر اعتراضاً على الإقليم المستقل، ويبيِّن بأنه لا ينطلق من المفاهيم العبرية اليهودية التقليدية، ولم يكن ذلك مستغرباً لأن الحزب الشيوعي له أيديولوجيته[1] التي يقرأ من خلالها، أو ينظم

---

(١) **أيديولوجية**: Idéologie: «فكروية»: نظرية فلسفية اجتماعية سياسية اقتصادية ثقافية قيمية يلتزمها تيار أو حركة أو حزب أو فرد، ويعمل على تعميمها، وإلزام سواه بها. الماركسية أيديولوجية، الليبرالية أيديولوجية، العولمة أيديولوجية...الخ. والأيديولوجية تكون على شكل مذهب أو عقيدة لصاحبها.

الأمور كافة، وبالتالي ما سيسمح به هو ثقافة سوفياتية يديشية لا ثقافة يهودية وعبرية تتعارض في مواقفها مع أيديولوجية الحزب.

إن ظروف الحياة ومقوِّمات المجتمع اليهودي الجديد اجتذبت فريقاً من يهود، ولم تستهوِ فريقاً آخر كان يجد أن المناخات ملائمة له في مواقع إقامته. ومما يذكر في هذا الجانب أن امرأة كانت تعيش في غومل Gomel بروسيا البيضاء علقت قائلة: «كان لدينا شعور بأننا نملك كل ما فيها... ولم يكن ثمة مبرر للرحيل إلى بيروبيجان». ومن هذا القبيل كان موقف إسحق بروشكول (Isaac Prichkol) الذي لم ينجذب نحو الإقليم، وكان في العشرين من عمره، وقد ذهب إلى مدينة ڤالدهايم Valdheim، التي وجد فيها ما يلائم اليديشية اليهودية أكثر مما كان يجده في مسقط رأسه سمولانسك (Smolensk) التي تقع شرقي موسكو.

وكان في المقابل من يرى غير ذلك، فنرى فيرا كوفمان Fira Kofman التي استوطنت في الإقليم منذ عام ١٩٣٦م، وكانت من البارزات في نشاطهن في صفوف الحزب الشيوعي، والمساهمات في البناء الاشتراكي للجالية اليهودية والتي كانت تعتبر أن بيروبيجان تعيش جواً يهودياً مميزاً، ومما دونته في ذكرياتها؛ تقول: «كنا نسمع الناس في الشوارع يتخاطبون باليديشية، وكانت لدينا مدارس يهودية، ومطعم يهودي نأكل فيه وجبات يهودية حقيقية، وكنا نحسُّ بجو يهودي حقيقي، وبعد ذلك كله ألم نكن نحن في الإقليم اليهودي المستقل؟». هذه المشاعر عدَّها بعضهم أنها تحقق الطموحات اليهودية السوفياتية التي تعمل القيادة السوفياتية في الكرملين من أجل تحقيقها.

لكن المشكلة كانت في الموقف الشيوعي من الدين أو الشعائر الدينية ليهود، حيث كان الموظفون المسؤولون حكومياً يحاربون ذلك،

ولم يسلِّم يهود بذلك بل ظلُّوا يمارسون طقوسهم بما في ذلك تحضير فطير الفصح. وفي العام ١٩٣٠م جاء الشيوعي البارز أوتو هلر (Otto Heller) إلى الإقليم، ويقول بأنه لاحظ وجود مكان للصلاة مبني من القش والطين. وقال زائرون آخرون بأن المستوطنين الجدد كانوا يؤدون شعائرهم الدينية بما فيها الصلوات بمناسبة أعيادهم، لكن في شقق عادية وليس في الكُنُس[١].

وكان المسؤولون الحكوميون، بالمقابل، يحاربون التدين، ويعمدون إلى تنظيم أنشطة متنوعة، كالمحاضرات الحزبية أو سواها، في أوقات تأدية الشعائر الدينية، كي يفوِّتوا الفرصة على مَنْ يرغبون إقامة هذه الشعائر، ورابطة الملحدين الملتزمين المتشددين ماركسياً كانت تقوم بذلك لقناعتها بعدم إمكانية الجمع بين الدين والاشتراكية. وقد انصبت جهود هؤلاء على المرأة أكثر من الرجل، انطلاقاً من نظرتهم التربوية إلى أن المرأة هي صاحبة التأثير الأقوى على الأولاد في البيت. ونظراً للنفوذ الحزبي في الإقليم فإنه كان من الخطورة بمكان أن يمارس أحد طقوسه الدينية علناً.

وفي الانتقال إلى شبكة العلاقات الاجتماعية في الإقليم فإنه يصعب رصد نمط العلاقات بين يهود وسواهم في الإقليم، لأن المسؤولين الحكوميين في الإقليم كانوا يردون أي إشكال في العلاقات إلى عامل واحد هو أن بعض من يعارضون العمل في المزارع الجماعية، وفق خطة الحزب والذين هم أعداء الاشتراكية، يقومون بذلك.

لقد عمل الموظفون المسؤولون على قمع كل مشاعر خاصة، بما

---

(١) **الكُنُس**: المفرد: كنيس: بيت العبادة لليهود. وأما الكنيسة فمحل العبادة للمسيحيين. والكلمة من أصل آرامي: كنُوشتا؛ ومعناها المجمع أو الجماعة.

ذلك الاعتزاز الوطني للروس، وعدوا ذلك مبرراً للاسامية[1]، كما يزعمون، وأنه معاد للآسيوية، ولما وجدوا مثل هذه المشاعر، القائمة على الخصوصيات، موجودة وماثلة للعيان في الحياة اليومية نسبوها إلى الكوريين الذين يبدون النفور تجاه الروس، والأوكرانيين ويهود.

لقد شهد الإقليم صدامات بين الروس والمستوطنين من يهود لأن يهوداً، كعادتهم، لا يمكن أن يتخلوا عن الانعزال والاستعلاء، وأنهم الشعب المختار مما دفع ببعض الروس أحياناً لمهاجمتهم بالسكاكين أو البنادق، وكانوا ينسبون إليهم المشاكل التي تحصل في المزارع الجماعية، وفي المؤسسات الصناعية.

ومما برز من ضيق بيهود وتضايق منهم، ومن أساليبهم أن أحد المستوطنين الروس، غير يهودي، قال: «إنني لا أقبل أن أتلقى الأوامر من يهودي». وقال أوكراني في متجر: «سأقتل كل من هو يهودي، إنني لا أستطيع أن أتحملهم».

حيال هذه الوقائع نجد المسؤولين في الإقليم قد اتخذوا موقفاً حازماً يحمي يهود ويدافع عنهم، ومما حوته سجلات يوميات بيروبيجان أنه صدر حكم عام ١٩٣٥م على عامل في سكة الحديد

---

(١) **اللاسامية**: أكذوبة صهيونية، وهي محض اختلاق. وأصل المسألة زعم أوردوه في العهد القديم حول أولاد نوح عليه السلام وأن أحدهم اسمه: سام، وأكملوا الأسطورة بالحديث عن شعب سامٍ ولغات سامية، وكلها أكاذيب. ثم بعد ذلك كان واقع التعامل مع يهود أوروبا يحمل حالات من الرفض لهم بسبب ما كانوا يمارسونه من عزلة وانغلاق في أحياء خاصة «غيتو»، كانت تسبب المتاعب للأوروبيين، ومع الحركة الصهيونية أصبح يهود يسمون عدم قبولهم عداءً للسامية، أو لاسامية، وظل هذا السلام المبني على أسطورة مستخدَماً حتى يومنا هذا، علماً أن الواقع يشير إلى عدم وجود سامية مزعومة، ثمَّ إذا افترضنا وجودها فإن يهود العالم، وهم خزريون بنسبة ٩٢٪، لا علاقة لهم بها.

بالسجن خمس سنوات لأنه اتُّهم بخداع مارسه على جماعة من يهود، وحكم عليه بالسجن لعدة سنين عام ١٩٣٧م، لأنه شتم يهود في مكان مخصص لنوم العمال. وهكذا نرى أن الأوامر الحكومية كانت باتجاه تثبيت يهود في الإقليم المستقل لكن مع ثقافة جديدة لادينية، وهذا ما لا يقبله يهود، ومن هذا الاتجاه جاءت بذور موت المشروع.

الرعب الشديد
ونهاية مشروع بيروبيجان

قام ستالين بحملة التطهير الشاملة والدموية ضد كل من اتُّهم بأنه قد عرقل خططه الخمسية، وذلك ما بين عامي ١٩٣٦م و ١٩٣٨م، ولم ينجُ إقليم بيروبيجان من هذه الحملة. إن حملة ستالين كانت تريد كبش فداء تستر فيه فشل الخطط الخمسية، وتزعم أنها تعمل لحشد الطاقات من أجل مواجهة أعداء الثورة والبناء الاشتراكي، والأعداء وهميون في الغالب، وقد أدت هذه الحملة إلى قتل وسجن وتهجير الملايين، ومن أساليب التعذيب كان اعتماد معسكرات للعمل (غولاغ) قضى فيها كثيرون بسبب الإرهاق أو سوء التغذية أو تردي الأوضاع الصحية.

أما إقليم بيروبيجان فقد كان نصيبه قتل الآلاف مع تهجير ٤٥٠٠ كوري سنة ١٩٣٧م، وقد نُقلوا في قطارات مع البضائع وقُذف بهم في أراضي آسيا الوسطى.

هذه الاعتقالات والإعدامات لم توفِّر بعض قادة الإقليم، والذي قاد ذلك لازار كاغانوفيتش، أحد مساعدي ستالين، وكان موظفون يهود هدفاً لحملته، منهم رئيس حكومة الإقليم إيوزيف ليبربرغ Iosif Lieberberg، الذي كان يشغل سابقاً منصب الأمين لمعهد الثقافة البروليتارية اليهودية في كييف، وزعيم الحزب في الإقليم متفاي خافكين (Matvei Khavkin)، وقد اتُهما بالقيام بأنشطة مضادة للثورة

وبالبرجوازية [1]، وتمت مطاردة عدد من يهود بتهمة نشاطات دينية محظورة.

وتهمة ليبربرغ كانت أنه يعمل لجعل إقليم بيروبيجان مركزاً للثقافة اليهودية، وهذه تهمة غريبة، انطلاقاً من قرار توطين يهود في الإقليم الذي يقوم على فكرة اليديشية اليهودية وإنشاء كيان يهودي مستقل.

أما خافكين فقد ألقي القبض عليه عام ١٩٣٧م، وسُجن حتى العام ١٩٤١م، حيث صدر حكم عرفي بحقه يقضي بسجنه ١٥ عاماً بعد تعرضه للتعذيب أثناء الاستجواب والتحقيق، وقد أُفرج عنه عام ١٩٥٦م، بعد أن انتقلت السلطة إلى خروتشوف (Khroutchev)، وكان قد أعلن مع عهده وقف حملة ستالين، وسُمح له بالعودة إلى موسكو. وكانت زوجة خافكين قد سُجنت معه كذلك والتهمة أنها قد دست سماً في الطعام الذي حضَّرته لـ «كاغانوفيتش»، السابق الذكر، إبَّان زيارة قام بها إلى إقليم بيروبيجان عام ١٩٣٦م، وحُكم عليها بالسجن وتعرضت للتنكيل، وانتهى الأمر بها، في آخر حياتها، في مستشفى للأمراض العقلية.

والغريب أن بعض يهود كانوا ينتقلون من مناطق التطهير إلى الإقليم، وكانت تنظم أوضاعهم الإدارات الحكومية، ثم لا يلبثون أن يتعرضوا للتنكيل مما جعل مصادر تطوير الإقليم تتراجع، وبدأت الفكرة بالوطن اليهودي المستقل تتراجع حيث لم توفر الإعدامات أشخاصاً متحمسين للمشروع بصيغته الحكومية مثل سيمون ديمونشتاين.

---

(١) **البرجوازية**: Bourgeoisie: تصنيف اجتماعي أطلقه فلاسفة السياسة والاجتماع في أوروبا على الطبقة التي كانت تملك وسائل الإنتاج الصناعي أو الزراعي وكانت تُطلق أحياناً على الطبقة الوسطى بين العمال والرأسماليين. وقد كانت البرجوازية بنظر الماركسية والشيوعيين عموماً مذمة وصفة سلبية.

لقد عمل ستالين تحت شعار تعزيز المشاعر الوطنية تجاه روسيا الكبرى، ومن أجل الدمج الثقافي للأقليات جميعاً بمن فيها اليهودية، وبناء على ذلك فإنه قام بإغلاق جميع المدارس اليديشية التي كانت قد انتشرت في أرجاء الإقليم الجديد، وفي أي مكان وجدت فيه في أنحاء الاتحاد السوفياتي. وقد تمَّ الإجراء نفسه حيال الأقليات كافة، ووضعت الحكومة يدها على أي مركز ثقافي أو تعليمي خاص بفئة أو أقلية.

وأغلقت الحكومة كذلك معهداً للمعلمين كان خاصاً بإعداد المعلمين الذين سيتولون التدريس في المدارس اليهودية، ولم يأت العام ١٩٤١م حتى كانت قد أغلقت كافة المدارس الخاصة باللغة اليديشية أبوابها باستثناء مدرسة ابتدائية في فالدهايم وأخرى للمرحلة المتوسطة في بيروبيجان، وبذلك تكون قد تلاشت فاعلية الجهود المبذولة لإقامة إقليم يهودي مستقل في بيروبيجان.

وبسبب إجراءات الضم، التي شملت كل من شرق بولندة وبلدان البلطيق خلال عام ١٩٣٩ـ ١٩٤٠م، فقد تعامل الكرملين مع يهود بخلاف سواهم من الأقليات. فلقد بقي يهجِّرهم إلى بيروبيجان، إلا أن الخطة القاضية بإقامة إقليم مستقل توقفت بفعل الحرب السوفياتية ـ الألمانية التي اندلعت في حزيران/ يونيو من العام ١٩٤١م.

وعشية الحرب العالمية سجل المتابعون رسمياً فشل مشروع إقامة كيان يهودي مستقل، حيث كان عدد يهود بيروبيجان لا يتجاوز ١٠٪ من مجموع السكان، ووفق إحصاء أُجري في العام ١٩٣٩م بلغ عدد يهود الإقليم ١٧٦٩٥ نسمة من أصل ١٩٠٠٠٠ نسمة، وهو مجموع سكان الإقليم، وسبب الفشل، كما ذكرنا سابقاً، هو أن الحكومة السوفياتية كانت في الأساس تريد نقل يهود إلى الثقافة الاشتراكية وتحاول إدماجهم في المجتمع الوطني السوفياتي إسوة بباقي الأقليات،

وبالتالي عدم التسليم بنمو ثقافة يديشية خاصة بيهود إلاّ ضمن الثقافة السوفياتية، ولهذا لم يعرف المشروع النجاح.

ولكن القرار بإنشاء إقليم مستقل في بيروبيجان ساعد الحكومة السوفياتية على تطويق الهجرة اليهودية إلى فلسطين، على الأقل طوال ثلاثينيات القرن العشرين، ولكن القرار بالسماح بتعليم اليديشية كان بالنسبة ليهود شكلاً بلا محتوى، ومن الأمثلة على ذلك أن أحد الكتب ورد فيه النص التالي باليديشية، وذلك في العام ١٩٣٦م:

«فلاديمير إليتش لينين

لينين هو قائدنا

معلمنا، وصديقنا

نطبق ما يوجهنا إليه

كل العمال يحبون ويعرفون لينين».

ومثل هذا النص لا يرضي المزاج اليهودي الذي يريد دراسة الثقافة الدينية اليهودية وليس سواها. إن عوامل كثيرة كانت تضعف من مفعول اليديشية، ويذكر ليفي داڤيدوفيتش Levy Davidowicz في مذكراته: «لم تكن اليديشية تشكل أساساً كافياً يمكننا من أن نصيغ هويتنا عليه». وأشار هذا الأخير كذلك بأن الحياة اليهودية في أجزاء كثيرة من الاتحاد السوفياتي كانت أفضل منها في بيروبيجان، كما ذكر أن اللجوء إلى اليديشية غير كافٍ للحفاظ على هوية ثقافية خاصة تمنع الإدماج.

إن سبب الفشل ليس فقط التقصير في الخدمات والتنمية الاجتماعية، وإنما السبب الرئيسي هو أن يهود كانوا يريدون خصوصية ثقافية، وبالمقابل كان الكرملين يعمل ليهودية اشتراكية أهلها في طريقهم إلى الاندماج الوطني.

لم يكن من الممكن إنجاح المشروع بالإقليم المستقل، لأن المجتمع

السوفياتي كان قد بدأ حركته الصناعية المتمركزة في المدن الرئيسية من موسكو العاصمة إلى سواها، وكان التدريس للجميع والإعداد باللغة الروسية، فكيف إذن سيغادر اليهودي هذا إلى لغة خاصة لا تقدم أي احتمال لفرصة في النجاح؟

إن عوامل مثل القرار السوفياتي في الكرملين بتوحيد الثقافة، بالإضافة إلى النمو الذي يسير من خلال اللغة الروسية، ومع ذلك الاختيار المنطقي لمواطن يعيش في بلد لا مكان للغته الخاصة فيه عملياً، كل ذلك جعل إمكانية تحقيق المشروع ضعيفة جداً.

انبعاث المشروع
بعد الحرب العالمية الثانية

بعد الحرب العالمية الثانية، انبعث مشروع الإقليم اليهودي المستقل في بيروبيجان من جديد، بعد أن كان قد شهد تراجعاً إبَّان الحرب (١٩٤١ـ ١٩٤٥م). وبعد العام ١٩٤٥م، وحيث كان قد حصل اجتياح ألماني لمناطق سوفياتية كثيرة، فقد حصل تدفق يهودي كبير باتجاه بيروبيجان، وقد شجعت الحكومة السوفياتية ذلك كي تصرف نظر يهود الاتحاد السوفياتي عن الهجرة إلى فلسطين، وقد وفد إلى بيروبيجان بين عامي (١٩٤٦ـ ١٩٤٨م) أعداد كبيرة، قال بعضهم إنها بلغت ٩٠ ألف نسمة، وكلهم أتى ليعمل في المزارع الجماعية، أو مزارع الدولة، وكان بين المهاجرين مدرسون ومهنيون وأصحاب كفاءات علمية.

الانبعاث الجديد للمشروع رافقه حماس وطموح لإنجاز وإتمام قيام جمهورية مستقلة، وقد قال أحدهم سنة ١٩٤٨م: «لقد تجاوزت الهجرة إلى الإقليم بعد الحرب ما كان متوقعاً، وإذا استمرت الحال كذلك فإن جمهورية يهودية سوفياتية لا تلبث أن تقوم في أقصى الشرق السوفياتي في غضون أعوام».

واستمر ميخائيل كالنين Mikhaïl Kalinine في دعم الإقليم، وأعلن سنة ١٩٤٨م بأن بيروبيجان دولة يهودية وطنية.

واستمرت جهود المسؤولين في دعم الهجرة اليهودية إلى الإقليم،

وأعلن مجلس الوزراء، في مستهل العام ١٩٤٦م، بأنه قد وضع خطة تسعى إلى التنمية الشاملة للإقليم ليصبح الشرق السوفياتي مأهولاً بالسكان، ولهذه الغاية أُنشئت في الإقليم مؤسسات صناعية، ومجمعات سكنية، وكان السكان في هذه المجمعات من كل الفئات والمستويات.

ولقد لعبت الصحافة دوراً مهماً في استقطاب المستوطنين إلى الإقليم، ومن ذلك أن امرأة يهودية، كانت قد غادرت القوقاز إلى فالدهايم في بيروبيجان، قالت الرواية التالية: «في أكتوبر/تشرين الأول ١٩٤٧م أحضر زوجي إلى المنزل صحيفة فيها مقال عنوانه: «الشرق الأقصى بحاجة إلى مستوطنين جدد». وبسبب المقال انتقلنا إلى الإقليم، حيث عملنا في مزرعة جماعية، وحينها دفعت الحكومة نفقات سفرنا، وأعطتنا قرضاً ميسَّراً يسدَّد في آجالٍ بعيدة كي نؤسس لحياة جديدة».

في العام ١٩٤٦م، تمَّ نقل أكثر من ستة آلاف يهودي في قطارات خاصة، وعلى مدى عامين، إلى الإقليم وكانوا يلقوْن حفاوة عند الاستقبال، وكانت الصحافة تتحدث بإسهاب وتفصيل عن الهجرة اليهودية إلى بيروبيجان.

وقد زار الإقليم الكاتب اليهودي باليديشية المدعو دايرناستر Dernister في شتاء العام ١٩٤٧م، وقد رافقه عدد من المستوطنين، وبعد الإقامة عدة أسابيع في بيروبيجان عاد إلى موسكو وبدأ يخطُّ المقالات التي تثني على الجهود المبذولة لبعث ثقافة ونمط حياة يهودية في إقليم يهودي مستقل.

لقد تزايدت الهجرة إلى الإقليم تلبية للنداءات والإغراءات، أو فراراً من الأجزاء الغربية للاتحاد السوفياتي التي تمَّ اجتياحها في الحرب. وقد تحدثت سيِّدة من مولدافيا Moldavia مفسِّرة سبب استقرارها في بيروبيجان فقالت: «أنا مصممة أزياء، وقد خسرت

أقربائي وعائلتي أثناء الحرب، ولم يبق منهم إلا خالان، وهما يخططان مثلي للاستقرار في بيروبيجان. وقد عبَّر عدد من يهود بأن تخصيص إقليم مستقل لهم هو من العوامل المشجعة على الاستيطان في هذا الإقليم».

والجهود الهادفة إلى جعل الإقليم مأهولاً بالسكان ترافقت مع إجراءات تخفيفية اتخذها الكرملين، وقد ساعد ذلك على انبعاث الثقافة اليهودية بمباركة من الكرملين، ومن مظاهر ذلك أن مسؤول الحزب الشيوعي في الإقليم كان يعمل ويحضُّ على إحياء اليديشية وتطوير عملية إصدار الصحف اليديشية، وأن تكون القوائم الانتخابية باللغتين الروسية واليديشية، وأنشأت الحكومة مطبعة للكتب المدرسية باليديشية، حيث فرض تدريسها بشكل إلزامي إلى جانب اللغة الروسية، لكن على الرغم من ذلك بقيت اليديشية لغة للتخاطب في المنازل، أما الروسية فهي لغة العمل والحياة اليومية.

هذا الواقع ولَّد من جديد حالة من التشاؤم وصلت إلى حد القول بأن اليديشية ليس لها مستقبل، ومع ذلك كانوا يصرُّون على وجود مدارس وصحف يهودية، وإلاّ لن يكون طابع الإقليم يهودياً، ولم يسلِّم عدد من أدبائهم بالواقع الذي ينتظر اليديشية، لذلك كانوا يقدمون أعمالاً أدبية وفنية باللغة اليديشية، ويصرحون بأن المطلوب هو إيجاد ثقافة يهودية اشتراكية.

جاء، في إطار خدمة تهويد شخصية بيروبيجان، القرار بإطلاق اسم الأديب اليهودي شولوم عليشيم Sholom Aleichem في ذكرى وفاته الثلاثين على أحد الشوارع، هذا بالإضافة إلى تنظيم فعاليات متنوعة في هذه الذكرى.

وقد تمَّ في الوقت نفسه افتتاح جناح خاص بالثقافة والتاريخ

اليهوديين في المتحف الوطني وذلك في العام ١٩٤٥م، وقد أشاد عدد من كتّابهم بهذه الخطوة التي اعتبروها نوعاً من الإقرار بالشخصية الخاصة، وقد تمَّ نقل العديد من المحفوظات إلى هذا المتحف من موسكو ولينينغراد وأوديسا.

وشجَّع عدد من المسؤولين كتّاب اليديشية على الكتاب الأدبية وغيرها بهذه اللغة، وكانت هذه الكتابات تدور حول معاني النصر السوفياتي على الألمان، وحول البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي، وقد ظهرت قصائد وأعمال أدبية على هذا الصعيد منها ما تتناول جهود أوائل المستوطنين في الإقليم.

وتطور الأمر إلى خطوة نوعية هي الإعلان عن مسابقة لاختيار نشيد يهودي يمجد الذكرى الثلاثين (١٩٤٧م) لوصول البلاشفة (الشيوعيين) إلى السلطة على أن تتضمن كلمات النشيد، وتعكس موسيقاه ما يلي:

١ـ تطور الحياة الاجتماعية، والوضع الاقتصادي لليهود في ظل الحكم الشيوعي.

٢ـ إبراز مدى مساهمة العمال اليهود في إطار الحزب الشيوعي وفي ترسيخ البناء الاشتراكي.

٣ـ التعريف بمشروع إقامة الإقليم اليهودي المستقل في بيروبيجان.

٤ـ التأكيد على الانتماء التام للحزب الشيوعي والولاء المطلق لستالين.

وقد برزت أعمال فنية أخرى في إطار فن الرسم كانت تعبِّر عن المقصود، من ذلك مثلاً صورة لعامل في حقل زراعي، أو لآخر يقود جراراً زراعياً...الخ.

لقد ظهرت أعمال وإبداعات عديدة في الآداب والفنون باللغة اليديشية، لكن مضامينها ـ كما حال النشيد الذي ورد الحديث عنه آنفاً ـ

جاءت تخدم الاتجاه الرسمي لقيادة الكرملين، ولم يكن فيها ما يريده يهود من خصوصية ثقافية تميِّزهم، وهذا الأمر، أي الكتابة باليديشية كلغة خاصة، مارسته أقليات أخرى ولكن المضامين كانت واحدة.

لكن هذا الواقع الثقافي الجديد لم يتقبله يهود بل حافظوا على تقاليدهم وطقوسهم خاصة بعد الحرب الثانية، حيث خفَّف الكرملين من إجراءاته وضغوطاته التي فرضها على يهود أو سواهم، وكان من مظاهر ذلك أن تقدم مجموعة من يهود في العام ١٩٤٦م بعريضة يطالبون فيها بالسماح لهم ببناء كنيس يهودي في الإقليم، وقد وافق على ذلك مجلس شؤون العبادات الدينية، وقبل ذلك لم يكن لهم بيت عبادة خاص، وإنما كانوا يمارسون شعائرهم، في الثلاثينيات، في شقق سكنية عادية.

تمت الموافقة على بناء الكنيس لكن من دون حاخام، وسُمِح بمرتل واحد، وقد أهديت نسخة من التوراة لهذا الكنيس من يهود إيركوتس، كما أن المخابرات السوفياتية أفادت بأن ترميم وتجهيز هذا الكنيس قد تمَّ من أموال كانت مخصَّصة لترميم المدارس، وهذا يدل على أن السماح ببناء الكنيس لم ترافق خطوات داعمة لهذا المشروع.

إن نمو أنماط السلوك اليهودي ولَّد قلقاً في أوساط الحزب الشيوعي مع العام ١٩٤٧م، وكان مما أثار هذا القلق رصد أكثر من ٥٠٠ شخص بينهم ضباط ببذلاتهم الرسمية يؤدون الصلاة خلال أيام الاعياد اليهودية، ومن أسباب القلق عدم قدرة مدراء المصانع من اتخاذ إجراءات تلغي المظاهر اليهودية الخاصة التي تمارس.

وزاد عامل القلق أن الأمن قد رصد حالة الكثير من أقارب قادة الحزب الشيوعي وهم يذهبون إلى الكنيس دونما تردد. وقد ذكر مسؤول الشرطة في بيروبيجان سنة ١٩٤٨م في تقرير له ما يلي: «لا

أدعو إلى اعتماد القمع، إلا أنه من الأهمية بمكان أن يتخلص عمالنا من تأثير الكنيس والمتدينين من يهود».

بدأت مع هذه الأجواء، حملات الضغط من جديد على المظاهر الدينية مما دفع عدداً من يهود الإقليم إلى ارتياد المسارح أيام الأعياد، وبقيت قلة منهم تذهب إلى الكنيس. لكن بمقابل هذه الإجراءات هبت جاليات يهودية لدعم مشروع الإقليم اليهودي المستقل، كما كان يحصل في الثلاثينيات عند بداية انطلاقة المشروع، وتمَّ جمع التبرعات المالية والعينية ما بين عامي ١٩٤٥ـ ١٩٤٨م، حيث وصلت كميات من المواد العينية قُدِّرت بستة ملايين روبل كان مصدرها الولايات المتحدة الأميركية.

ورغم الحملات الدعائية والمطالبة بمرافق عامة للإقليم، مثل مؤسسات رعاية الأيتام الذين فقدوا آباءهم في الحرب، ورغم إبراز جمعيات الدعم بوضع أينشتاين (Einstein)[(١)] على رأسها إلّا أن المشاكل في الإقليم لم يتبدل منها شيء.

بعد الحرب، تراجع وضع العمالة في الإقليم مما عرقل عملية البناء، ولكن محاول استقدام عمال فنيين للصناعة وللمزارع الجماعية لم يحل المشكلة بسبب تردِّي وضع المرافق العامة والبنى التحتية في الإقليم، فالمساكن باتت تحتاج لترميم، والطرق غير مؤهلة، والنفايات تتوزع

---

(١) **أينشتاين**: Albert Einstein: (١٨٧٩ـ ١٩٥٥م) يهودي ألماني واضع نظرية النسبية. درس في زيورخ وعلّم فيها وفي براغ وبرلين وكاليفورنيا، وحصل على الجنسية السويسرية، وبعدها الجنسية الأمريكية في العام ١٩٤١م.
كان من المؤمنين بالعمل لوطن قومي يهودي في بيروبيجان، أو الأولى في فلسطين، وقد نشط في هذا المجال وجمع التبرعات لدعم الغزو الاستيطاني الصهيوني، وبعد اغتصاب فلسطين، دعم العدو الإسرائيلي وكان من كتل الضغط الأمريكية العاملة لصالح العدو الإسرائيلي.

على جوانب الطرق، إلى غير ذلك من المرافق التي كانت أوضاعها سيئة لأن بناءها تمَّ على عجل.

وعلى سبيل المثال، تمَّ إقفال المكتبة العامة التي افْتُتِحت في العام ١٩٣٤م بسبب تسرب المياه من سقفها وجدرانها، كل ذلك جعل القدرة على استيعاب سكان جدد في الإقليم شبه مستحيلة. وقد انتهت الأوضاع إلى تصنيف يتوزع على مرحلتين هما: السنوات السود ومرحلة ما بعد ستالين.

أ ـ **السنوات السود**: ساءت الظروف في الإقليم بعد الحرب حيث عاش المستوطنون بلا مساكن مناسبة ولا أثاث وتجهيزات، حتى أن بعضهم كان يفترش الأرض، وأسفرت النتيجة عن مغادرة ٩٠٠٠ مستوطن الإقليم، بإذن حكومي، من أصل ١٤٠٠٠، وقد رحلوا إلى مناطق أخرى في الاتحاد السوفياتي، وقد جرى ذلك سنة ١٩٤٦م.

شهد العام ١٩٤٨م اغتصاب فلسطين، وقيام السلطة الإسرائيلية المعادية على أرضها، وترفق مع هذا الحدث حملة شرسة من ستالين للقضاء على أي نشاط ثقافي يهودي في الإقليم بخلاف ما كان مقرراً، أو جارياً منذ العام ١٩٢٨م، والسبب أن ستالين والكرملين خافا من تنامي اللاسامية، ومن أن تقوى شوكة يهود في الإقليم ويتمردوا على الدولة.

واتجه ستالين إلى العمل لنقل يهود إلى سيبيريا أو كازاخستان أو أية منطقة، وبدأت الاستعدادات لتنفيذ ذلك لكن القرار لم ينفذ بسبب موت ستالين سنة ١٩٥٣م.

وكان ستالين قد اعتقل عدداً كبيراً من يهود الإقليم بسبب الريبة والشك في ولائهم للحرب والدولة، وبعد أن اتسعت علاقاتهم مع الحركة الصهيونية والمنظمات اليهودية العالمية.

هذه الاتصالات مع الخارج اليهودي أزعجت قادة الكرملين ومعهم ستالين لأن مصدر بعض المساعدات ليهود الإقليم هو الولايات المتحدة الأمريكية، ونشر مثل هذه الأخبار يهزُّ سمعة الاتحاد السوفياتي، وبالتالي فإن ما سينجز في الإقليم قد ينسب للأمريكان وليس للسوفيات.

وكان من بين المعتقلين من يهود أحد أبرز قيادييهم، واسمه «باخوموتسكي» Bakhmutsky، والتبرير لاعتقاله أنه قدّم اقتراحاً برفع استقلالية الإقليم إلى مستوى جمهورية مستقلة، ولأنه كان يدعم، بحماس، الصحف اليهودية الصادرة باللغة اليديشية.

صنّف ستالين وقادة الكرملين يهود بيروبيجان النافذين على أنهم خدّام البورجوازية والغرب على حساب الحزب والمصالح السوفياتية، وأدباء اليديشية أتُّهموا بالعنصرية اليهودية، وأنهم على قطيعة مع الحاضر السوفياتي بعد الثورة البلشفية (١٩١٧م).

وتوالت عمليات الاعتقال والمحاسبة لأدباء وبارزين، وقد كان بين المبررات أن هؤلاء لم يشيدوا بدور الدولة السوفياتية في بناء الإقليم، وزعمهم أن الإقليم قد تمَّ بناؤه بأيدٍ يهودية.

واللافت هنا أن مثل هذه الإجراءات لا تنسجم مع أصل الانطلاقة في تأسيس الإقليم كإقليم يهودي مستقل، وأنه وطن يهودي.

لقد كان باخوموتسكي وسواه يعلمون بأنَّ التضحية بهم كانت بسبب التحول السياسي في الكرملين، وجهودهم التي بذلوها للنهوض بالإقليم المستقل، وأن تسوده اليهودية واللغة اليديشية والتي رعتها الدولة أساساً، كما أن إقليم بيروبيجان تقرر حكومياً أن يكون وطناً يهودياً لكن الاتجاه اختلف. وبدأ ستالين حملته على الجالية اليهودية، ودفع من عملوا في تنفيذ القرارات بإنشاء الإقليم ثمن نشاطاتهم، ودخل الإقليم

في غيبوبة بعد أن حُظِّر التعليم باليديشية، وأُغلق الكنيس اليهودي، وأُقفِلت المسارح اليهودية، وصحيفة نجم بيروبيجان كما ألغى الكرملين الجناح اليهودي في المتحف، وأُحرِقت عشرات ألوف الكتب اليهودية التي كانت في المكتبة.

لقد شنَّ ستالين في أيامه الأخيرة، حملة شاملة ضدَّ يهود إقليم بيروبيحان، وتبدَّدت أحلامهم بوطنٍ يهودي، وقد قال كاتب أوكراني يهودي يدعى باسيا اسبيڤاك (Basya Spevak) معلقاً: «إن الصهيون السوفياتي مجرد خدعة».

أما الإجراء الآخر، بعد إقفال المؤسسات اليهودية كافة في بيروبيجان، فهو عملية نقل مستوطنين غير يهود إلى الإقليم، وإعطاؤهم امتيازات تشجعهم على هذه الهجرة، وبذلك تراجع الحضور اليهودي في الإقليم ثقافياً وسكانياً، وبات بعضهم يخاف من إعلان يهوديته، وبذلك بدأت فكرة يهودية بيروبيجان تحتضر.

بعد هذه الماجريات لم يعد الإقليم المجسِّد الحقيقي للتطلعات اليهودية، وقد كتب بوريس ميلر Boris Meller يقول: «لم يعد إقليم بيروبيجان مرتعاً لآمالنا بل أصبح ميداناً لاستيعاب يهود في إطار الحزب»؛ ويبدو أن هذا ما كان يتطلع إليه قادة الكرمليين؛ أي الاندماج اليهودي بالحزب والمجتمع لا أن يقوم لهم كيان مستقل.

ب ـ **مرحلة ما بعد ستالين**: بعد موت ستالين لم يتبدل شيء من واقع بيروبيجان المتردِّي، وبدأت تتسرب أخبار الإقليم عبر وسائل الإعلام، ومن ذلك أن صحفياً أمريكياً اسمه هارسون ساليسبوري (Harrison Salisbury) زار الإقليم سنة ١٩٥٤م، وكتب بعد الزيارة ما يلي: «لقد فقد إقليم بيروبيجان، منذ مدة طويلة سمته اليهودية، وتفحُّص حالة أهله لا تظهر أية علامات على يهوديتهم... لقد انمحت الصورة التي

كانت تفيد بأن بيروبيجان إقليم يهودي مستقل يجتمع فيه يهود الاتحاد السوفياتي، ولم يعد بنظرهم يشكل أية قيمة على هذا الصعيد».

وبدأ عدد من قادة الكرملين يقرُّ بزوال الصفة اليهودية عن الإقليم في ميدان الثقافة أو سواها، حتى أن الرئيس الخلف لستالين خروتشوف قال لصحفي إيطالي في العام ١٩٥٨م: «إن المشروع الاستيطاني اليهودي في بيروبيجان فشل فشلاً ذريعاً».

لقد كانت إرادة الكرملين أن لا يكون وطن خاص ليهود في بيروبيجان، كما أن يهود اتجهوا إلى فلسطين المحتلة استيطانياً، وقد تراجعت نسبة يهود بيروبيجان إلى ٩٪ عام ١٩٥٩م وكان عددهم ١٤٢٦٩ نسمة، إلى أقل من ٧٪ في العام ١٩٧٠م، وعددم ١١٤٥٢ نسمة.

لقد تلاشت مظاهر الثقافية اليديشية في بيروبيجان، ولم يبق سوى بعض اللافتات أو اللوحات الإرشادية باليديشية، وترافق مع ذلك تواصل الإجراءات التي تعمل لاندماج يهود بالمجتمع السوفياتي عموماً والروسي خصوصاً في بيروبيجان، وكان التعليم بالروسية، وأصبحت صحيفة نجم بيروبيجان التي كانت بمضمون يهودي وباليديشية نسخة عن اليوميات الروسية، وبقيت بعض الظواهر اليديشية البسيطة كأناشيد في الإذاعة أو رجل دين مع مرتل يلتقيان مع بعض يهود قرب المكان الذي احترق عام ١٩٥٦م، وأنشئت فرقة مسرحية يهودية كانت تقدم عروضها باليديشية في مناطق عديدة، إلا أن ذلك لم يعد كافياً لبعث الحياة في قرار إقامة وطن يهودي مستقل في بيروبيجان، وبقيت الحال كذلك مدة تجاوزت الثلاثة عقود حتى وصول غورباتشيف Gorbatchev إلى الرئاسة أواسط الثمانينات من القرن العشرين، حيث عاد إلى الواجهة مشروع انبعاث خصوصية يهودية في الإقليم، وقد ساعد في

ذلك ما طرحه غورباتشيف من خلال ما سماه: البيرويسترويكا Perestroïka[١] والغلاسنوست Glasnost[٢]، وبعدها سقوط الاتحاد السوفياتي، حيث وجد الموظفون من يهود وسواهم في الإقليم إمكانية لإحياء السمات الثقافية اليهودية في بيروبيجان، وإعادة بعث فكرة الوطن اليهودي المستقل، رغم العدد الضئيل لهم في الإقليم، حيث أشارت إحصاءات سنة ١٩٨٩م بأن يهود بيروبيجان يبلغون ٩٠٠٠ مواطن من أصل ٢١٤٠٠٠ مواطن يقيمون في الأقليم.

كان الدافع لإحياء الثقافة اليهودية اليديشية تلك المشاعر الموروثة عن الطابع الاستقلالي للإقليم، بالإضافة إلى حالات مصلحية اقتصادية، حيث وجد بعض النافذين أن بعث الفكرة يجلب لهم مكاسب سياحية وتجارية من خلال ارتياد يهود للإقليم من سائر أنحاء البلاد.

أما من الناحية الرسمية، فقد حاول مجلس الوزراء السوفياتي سنة ١٩٩٠م إعادة طرح قصة توطين يهود في الإقليم، وقدمت لهذه الغاية التسهيلات والمساعدات، وأثمر ذلك عودة اليديشية لغة اختيارية إلى جانب اللغة الأولى الرسمية الروسية في مدارس الإقليم. وفي العام

---

(١) **البيرويسترويكا**: «إعادة البناء» هذا هو المعنى اللغوي. والكلمة اتخذت أهميتها مع غورباتشيف، آخر رئيس للاتحاد السوفياتي السابق، الذي أعلن مشروعاً إصلاحياً في كتاب سمّاه «البيرويسترويكا والتفكير الجديد لبلادنا والعالم أجمع». ويحوي هذا الكتاب مشروعاً للإصلاح وإعادة البناء على قاعدة مراجعة أو نقض الكثير من التطبيقات الماركسية، والكتاب نشر في العام ١٩٨٨م.

(٢) **الغلاسنوست**: «النقد العلني» هذا هو المعنى اللغوي. والكلمة اتخذت مع غورباتشيف دلالة مختلفة مفادها أن القمع والكبت الذي كان معتمداً في ظل النظام الماركسي اللينيني منذ العام ١٩١٧م، وهو نظام شمولي (توتاليتاري)، أصبح من الضروري وقف العمل به لإفساح المجال لحرية النقد وإبداء الرأي بشكل علني.

نفسه ١٩٩٠م تمَّ إقرار تدريس الأدب اليهودي واللغة اليديشية في مدرسة المعلمين العليا، وبنيت مدرستان تدرِّسان باليديشية سُمِّيتا: «مدرسة الأحد»، وكان قد سبق ذلك في العام ١٩٨٢م تعليم ١٥٠ طفلاً اليديشية والثقافة اليهودية في إطار المحافظة عليها من الانقراض وأعطيت هذه المدارس كل الدعم، وتم تجهزيها بشكل لافت ومميَّز.

ويأتي ضمن محاولات بعث النشاط اليهودي أنه قد أُعيد فتح الكنيس في بيروبيجان سنة ١٩٨٤م، وقد مارس الطقوس فيه مجموعة من المتدينين اليهود ومجموعة من الأدفنتسيين (Adventistes)[١]، وبعد ذلك أقيم مشروع تم إنجازه سنة ١٩٩٦م (أي بعد سقوط الاتحاد السوفيتي) هو عبارة عن كنيس جديد ومركز ثقافي يضم مكتبة يهودية.

كما أنه جرى تفعيل الاتصالات بين يهود الإقليم والمؤسسات الصهيونية الإسرائيلية في فلسطين المحتلة، أو تلك الموجودة في الولايات المتحدة الأمريكية، وتركَّز النشاط على نشر الثقافة اليهودية بين سكان الإقليم. ومن النشاطات التي أقاموها، خدمة لهذا الهدف، المخيمات الصيفية أو زيارات بعض القادة الصهاينة إلى الإقليم للقيام بنشاط ثقافي. أمضى أحد الحاخامات الإسرائيليين سنة ١٩٩٤م عدة شهور في بيروبيجان عاملاً في نشر المعارف اليهودية، وبدأ يهود الإقليم يمارسون طقوسهم علناً وبتمويل من البلدية، في سنة ١٩٩٢م، مثلاً، احتفلوا بعيد الفوريم (Fourim)[٢]، وتم عرض الاحتفال في التلفزيون المحلي للإقليم.

---

(١) **أدفنتسيون**: Adventistes: فريق أو فرقة بروتستانتية أمريكية تعتمد في إيمانها على نبوءات العهد القديم التي تؤدي إلى تيار الصهيونية غير اليهودية، وأن العودة الثانية للمسيح سيكون بعدها العهد الألفي السعيد، وهذه بدعة أمريكية.

(٢) **الفوريم**: عيد يهودي مستحدث، ومناسبته هي نجاة يهود من مخطط كان قرره=

لقد انبعثت مظاهر صهيونية ويهودية في الإقليم مع تسعينيات القرن العشرين، وجرت محاولات لنشر الثقافة اليهودية مع اللغة اليديشية، وبذلك تكون الجهود التي بذلها قادة الكرملين إبَّان الحكم الشيوعي، من أجل القضاء على الخصوصية اليهودية، في المجتمع، قد باءت بالفشل.

ولكن عقبات منعت من تحقيق حركة البعث الجديدة لمشروع يهودية الإقليم أبرزها نقص عدد يهود الإقليم، حيث كان قُسم كبير منهم قد نزح إلى فلسطين المحتلة، وفي العام ١٩٩٦م، وخلال خمسة شهور، غادر بيروبيجان أكثر من ٩٠٠ يهودي إلى فلسطين المحتلة، وهذا يوصلنا إلى سؤال هو: ما مستقبل إقليم يتقلص عدد سكانه بشكل دائم وفي كافة الظروف؟ فيهود أنفسهم لم يعودوا متحمسين للمشروع، رغم تفكك الاتحاد السوفيتي، حيث بات الجو مهيَّأً لممارسة حياة تقوم على الثقافة اليهودية. فإن واقع الإقليم الاقتصادي الاجتماعي، مع بقاء قِلة من يهود فيه، لم يعد يسمح بتنفيذ مشروع لوطن يهودي فيه، وبهذا تكون إسرائيل الثانية قد أصبحت منسية لينصبَّ الجهد العنصري الصهيوني على دعم مشروع إسرائيل الأولى في فلسطين المحتلة وجوارها.

= لهم هامان، وزير أرتحششتا الفارسي وأصل الكلمة: «فورا» ومعناها: قُرعة، لأن هامان كان قد أجرى قُرعة قبل قراره، وكانت «أستير» قد قدمت نفسها لأرتحششتا بناءً لتوجيه عمها الحاخام موردخاي، وبسببها عفا عنهم أرتحششتا، وجعل لها يهود سفراً في العهد القديم هو: سفر أستير، وقد يسمون هذا العيد يوم موردخاي، وفيه يقرأون سفر أستير، وهو ليومين. وعندما يرد اسم هامان وزير أرتحششتا يصرخون ليُمْحَ اسمه. وموعد عيد الفوريم يوما الرابع عشر والخامس عشر من شهر آذار/ مارس، ويقدمون له باليوم الثالث عشر.

إنَّ مسيرة إقليم بيروبيجان تبيِّن أنَّ يهود يلتزمون ثقافة الانعزال وعدم الاندماج في أي مجتمع يقيمون فيه، هذا بالإضافة إلى أمر آخر هو تشبُّعهم بالثقافة الصهيونية العنصرية وبالمزاعم التي ينطلقون منها بحقٍ في أرض فلسطين.

خاتمة

تلقَّى يهود والحركة الصهيونية مشروع بيروبيجان بالقبول على أن يكون محطة، وتجربة من أجل أن الوطن المستقل لهم هو فلسطين المنوي اغتصابها، وقد عبَّر عن هذا الموقف، لحظة إعلان القرار السوفياتي زمن ستالين ١٩٢٨م، رئيس المنظمة الصهيونية يومها حاييم ويزمان الذي قال: «نبارك هذا المشروع ونحييه، ليس باعتباره بديلاً عن التفكير الجنوني الإجرامي في إقامة وطن قومي ليهود في فلسطين، بل باعتباره تجربة أولى لفكرة الوطن القومي اليهودي».

إن دراسة المسار التاريخي لمشروع «إسرائيل» الأولى في بيروبيجان، قبل «إسرائيل» في فلسطين المحتلة تقود إلى مجموعة من الخلاصات منها ما يلي:

١ـ إن الفكر الديني كثقافة أشبعت نفوس يهود، وأُسس للاستعلاء والعنصرية، وتالياً لرفض الاندماج من قبل يهود، ومن بعد الصهاينة، في أي مجتمع عاشوا فيه، ومن ذلك واقع تصرفاتهم في روسيا وفي الاتحاد السوفياتي فيما بعد. لكل هذا عاشوا العزلة و«الغيتو»، ولم تجدِ معهم كل محاولات الإدماج، وهذا يؤشر إلى أن زوال إسرائيل الأولى في بيروبيجان سيكون بعده زوال إسرائيل الثانية الغاصبة لفلسطين.

٢ـ إن النفوذ الصهيوني كان كبيراً في التركيبة السوفياتية بحيث استطاع انتزاع قرار بتأسيس وطن وإقليم مستقل في بيروبيجان زمن

ستالين، وعندما بدأ التنفيذ البريطاني لوعد بلفور بتسليم فلسطين للمغتصب الصهيوني، وباتت الحاجة ماسة لمهاجرين إلى فلسطين المحتلة من يهود، بدأ ستالين يضيِّق على مشروع بيروبيجان، وبدأ باتخاذ خطوات لإلغائه لتتركز الأنظار يهودياً وصهيونياً واستعمارياً على اغتصاب فلسطين بدل أن تتوزع جهودهم بين بيروبيجان وفلسطين، وبذلك جاء قرار إنشاء الإقليم لإرضاء نزعة الاستيطان في إقليم مستقل عند الصهاينة، وإلغاء القرار فيما بعد لخدمتهم من أجل أن يغتصبوا فلسطين.

٣ـ إن يهود، حيثما كانوا، يتجهون إلى العمل في المدن وفي مهن محددة، كالمال والإعلام والتربية والتجارة وسواها، وهذا ما عرقل انسجامهم مع مشروع بيروبيجان.

كما أنهم يعتمدون الاختراق والتجسس والاغتيالات، واستغلال إمساكهم بالمال في الضغط على الحكومات والشركات، وقد مارسوا كل هذه الأساليب في روسيا وفي الاتحاد السوفياتي.

٤ـ إن السوفياتي الشيوعي كان، كسواه من قوى الاستعمار، يؤيد اغتصاب فلسطين، وتشجيع الهجرة اليهودية الاستيطانية إليها، لأن ذلك يريحه من أعداد كبيرة من يهود الذين يحدثون له المتاعب والمشكلات.

محتوى الكتاب



أ.د. أسعد السحمراني

من مواليد لبنان سنة ١٩٥٣م

التحصيل العلمي

* تابع الدراسة الابتدائية في مدارس عكار/لبنان الشمالي.
* في العام ١٩٧٦م، حصل على الليسانس في الفلسفة وعلم النفس من جامعة بيروت العربية.
* في العام ١٩٧٧م، حصل على الليسانس في اللغة العربية وآدابها من الجامعة العربية.
* في العام ١٩٨٠م، حصل على الماجستير في الفلسفة من الجامعة اللبنانية.
* في العام ١٩٨٣م، حصل على الماجستير في التربية من الجامعة اللبنانية، وفي العام ذاته حصل على الدكتوراه في الدارسات الإسلامية من جامعة الإمام الأوزاعي - بيروت.
* في العام ١٩٩٢، حصل على رتبة الأستاذية في العقائد والأديان المقارنة.

المهمات والمسؤوليات

١ - أستاذ «العقائد والأديان المقارنة» في جامعة الإمام الأوزاعي - بيروت.

٢ - مسؤول الشؤون الدينية في المؤتمر الشعبي اللبناني.

٣ - عضو المؤتمر الإسلامي العام لبيت المقدس - عمّان.

٤ - عضو لجنة القدس وفلسطين في المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة.

٥ - عضو الهيئة اللبنانية لنصرة القدس.

٦ - عضو اتحاد الكتاب العرب في دمشق.

٧ ـ عضو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الجزائر.

٨ ـ عضو منتدى الحكمة للمفكرين والباحثين في الرباط.

٩ ـ عضو مجلس أمناء المركز الثقافي الإسلامي في بيروت.

١٠ ـ أستاذ منتدب في كلية الآداب بجامعة بيروت العربية «سابقاً».

١١ ـ عضو هيئة شؤون الإفتاء في لبنان «سابقاً».

المؤلفات والأعمال المنشورة

١ ـ الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة.

٢ ـ الاستبداد والاستعمار وطرق مواجهتهما عند الكواكبي والإبراهيمي.

٣ ـ الإسلام بين المذاهب والأديان.

٤ ـ الإعلام أولاً.

٥ ـ بدعة عبادة الشيطان: الخطر وسبل المواجهة.

٦ ـ البهائية والقاديانية.

٧ ـ البيان في مقارنة الأديان.

٨ ـ التصوف منشؤه ومصطلحاته.

٩ ـ التطرف والمتطرفون.

١٠ ـ شهود يهوه: نشأتهم وأفكارهم.

١١ ـ صراع الأمم بين العولمة والديمقراطية.

١٢ ـ العدل فريضة إسلامية.

١٣ ـ الفلسفة العربية: دروس ونصوص، مع آخرين.

١٤ ـ لا للإرهاب... نعم للجهاد.

١٥ ـ الماسونية: نشأتها وأهدافها.

١٦ ـ مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً.

١٧ ـ المشروع الصهيوني الجديد.

١٨ ـ المرأة في التاريخ والشريعة.

١٩ ـ من قاموس الأديان: الصابئة ـ الزرادشتية ـ اليزيدية.

٢٠ ـ من قاموس الأديان: الهندوسية ـ البوذية ـ السيخية.

٢١ ـ من قاموس الأديان: الشنتوية ـ الكنفوشية.

٢٢ ـ من اليهودية إلى الصهيونية.

٢٣ ـ ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة.

٢٤ ـ المال والإعلام في الفكر اليهودي والممارسة الصهيونية ـ تقديم وتحرير.

٢٥ ـ موسوعة الأديان الميسرة ـ رئيس التحرير ومشارك في التأليف ـ إعداد دار النفائس ـ بيروت.

٢٦ ـ تقديم وضبط كتاب: طبائع الاستبداد للكواكبي.

٢٧ ـ حواشي وتقديم كتاب: تفصيل النشأتين للراغب الأصفهاني.

٢٨ ـ حواشي وضبط كتاب: سر تطور الأمم لغوستاف لوبون.

وله أبحاث ومساهمات منشورة في عدد من الدول العربية والإسلامية والأوروبية، وهي بالمئات.

رقم: 439 - 04